الطبعة السادسة

الطَريقُ إلى كَربَلاء

الشيخ
إبراهيم القديم

الباقيات الصالحات
للطباعة والنشر

الطريق إلى كربلاء

الشيخ إبراهيم القديم

موقع الأوحد
Awhad.com

١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١٨م

.....

الكتاب : الطريق إلى كربلاء

المؤلف : **الشيخ إبراهيم القديم**

الناشر : **لجنة السيد الأمجد – الكويت**

.....

إهداء

إلى الذي وقفتُ أمامه قبل سنوات وسألتهُ أن يكون معلّمي،
إلى الذي لم يرد لي طلباً واحداً.. صغيراً كان أم كبيراً،
إلى الذي أشتاقُ إليه كلما ابتعد عنه جسدي،
إلى مولاي الإمام الحسين عليه السلام

أُهدي هذه السطور

لما أخبر النبي صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة بقتل ولدها الحسين عليه السلام وما يجري عليه من المحن، بكت فاطمة عليها السلام بكاءً شديداً وقالت: يا أبتي! متى يكون ذلك؟

قال: في زمان خالٍ منّي ومنك ومن عليّ.

فاشتدّ بكاؤها وقالت: يا أبتي! فمن يبكي عليه؟ ومن يلتزم بإقامة العزاء له؟

فقال النبي صلى الله عليه وآله : يا فاطمة! إنّ نساء أمتي يبكون على نساء أهل بيتي، ورجالهم يبكون على رجال أهل بيتي، ويجددون العزاء جيلاً بعد جيل في كلّ سنة؛ فإذا كان يوم القيامة تشفعين أنتِ للنساء وأنا أشفع للرجال، وكلّ من بكى منهم على مصاب الحسين أخذنا بيده وأدخلناه الجنة.

يا فاطمة! كلّ عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت على مصاب الحسين؛ فإنها ضاحكة مستبشرة بنعيم الجنة.

[بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤٤ ب٣٤/ ثواب البكاء على مصيبته.. ص٢٩٣ ح٣٧]

رحلة..

روحها حقيقية

جسدها عبارات أدبية

ثيابها خيوط في وسط قضية

لكنها ليست أيّ قضية..

إنها إلهية سرمدية حسينية

إنها قبس شعّ من الجليلة الزينبية :

(فكد كيدك، واسعَ سعيك، وناصب جهدك،

فو الله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا).

استهلال

من منّا لم يسمع بأربعينية الإمام الحسين عليه السلام ؟

ومن منّا لم يسمع بما يُوقد من مشاعر في مواكبها، عزائها، وفي طريق المشي إلى الأرض التي تحتضنها؟

لا أعتقد مع وجود هذا الكم الهائل من النقل المكثف عبر القنوات التلفزيونية، وغيرها من وسائل التواصل التي أبـدَتِ اهتماماً بالغاً بهذا الحدث، أن يكون هناك أحد لم تشاهد عيناه أو تسمع أذناه عن ذلك.

لكن.. من يسمع عن مجامِرِ الحدث ليس كمن يراها، ومن رآها مرات عديدة ليس كمن رآها للمرة الأولى.

أربعينية الإمام الحسين عليه السلام حَدَثٌ شَجَن يفوق التصور، ويعجز الإنسان مع تقدم وسائله من تقديم تحليلٍ أو تفسيرٍ منطقي شامل يصف شعور الملايين المشاركة فيه.

فهو وإن ضمَّ حشداً اجتمعوا على حبٍّ ولائي واحد؛ إلا أنّ لكلٍ منهم قطرة من تفسيرِ خيوط ذلك الشجن، وسبب عشق شغوف تحمل رؤيتهُ اختلافاً شاسعاً من واحدٍ إلى آخر؛ لاختلاف قابلية اعتقاداتهم فيه.

فما تحمله رؤية الرجل من شغفٍ في عيش لحظاته، أو في نقل صوره للغير آنفاً، وإن لم يكن بأدق التفاصيل، تختلف عما هي عليه عند المرأة، وحتماً هذه الرؤية عند الشيخ الكبير الطاعن في السن، تختلف عن تلك الرؤية العفوية البريئة التي يحملها الطفل الصغير.

كذلك هو شغف المصور حينما يَنقل أو يُوثِّق بعدسته شيئاً ما فيه ـ المتحرك منها والساكن ـ؛ فإنه لا يخلو من امتزاجه بمعتقدِ ما استحق النقل أو التوثيق من جهةِ رؤية مشاعره، وحينما يجسّد الرسام في لوحته

٩

شيئاً من المعالم التي انسكبت في أُفقه؛ فهو أيضاً يحاول إبراز ما شعر أنه يستحق حمل ألوان رسمته.

ولكن.. هل من الممكن أن يصل شغف الكتابة عند الكاتب إلى حدّ أن يكون كالمصور أو كالرسام في نقلِ ما يجري من واقعهِ، وفي لحظة حدوثه؟!

أكادُ أجزم بعد قراءتي لكتاب (لماذا نكتب؟) الذي تناول مجموعة قصص خبرات عدد من الكتاب؛ بأنّ الكاتب لا يمكنه الكتابة إلا حينما ينفردُ بعيداً عن عالم الضوضاء، وينسلّ بسكونٍ تام إلى عالمه الخاص.

ولكن.. ماذا لو كُسرت هذه القاعدة، وذريت معتقداتها مع نسمات الرياح، وأصبح الكاتب مثلهما ـ المصور والرسام ـ، يقف أمام المنظر أو التمثال أو الحدث، ويحاول تجسيد ما هو مملوء فيها من روح الحياة مباشرة؟

ماذا لو تحولت عدسة المصور إلى مخيلة واسعة تجسد جميع نقاط الحدث بدقةِ الكلمات؟

أو تحولت لوحة الرسام إلى ورقةٍ صغيرةٍ مسطرة، وفرشاته إلى قلمٍ جاف، وألوانه إلى مشاعر مملوءة في داخل الحروف؟!

ففي هذه الرحلة الروحية التي امتدّ أفقها إلى عالمٍ تضيق فيه العبارة، ويتسع فيها صدر المشاعر إلى حدّ الذهول، لم أشأ تركها تعبرُ بسلامٍ من دون توثيق أمام محيطات قلمي؛ لتصبح لحظاتها وكأنها الحلم الذي ننام لنراه، وحينما نستيقظ لا نتذكر إلا طفيف أجزائه.

فإنّ اللحظات فيها لا تكاد تُمحى؛ وكيف يمكن أن تمحى وقد اشتملت على مواقف وأحداث وقصص لا تكاد تُصدق.

ففي شوارع النجف وطريق المشاية، وفي شوارع كربلاء يوم ذكرى رجوع ظعن السبايا مع السيدة الجليلة زينب عليها السلام توجد ذرّات انبثقت مع الهواء يعجز الوصف عن وصفها.

فهل رأيت في حياتك امرأةً مسنةً تقف على رصيفٍ في منتصف الليل باحثةً عن مسافرٍ كي ينزل في دارها بالمجان؟

وهل رأيت هيبة رجل مرموق؛ شيخ قبيلة، أو طالب علم معمم، أو صاحب شهادة عليا، تسكبُ بنشوة فخر في كوبِ كلمات التشجيع، التي يطلقها بكلّ ما يملك من أدب الحبّ والعشق من قاموس كلماته الخاص؟

وهل رأيت معطياً بالمجان يدلل وهو متوسل بالدموع من أجل أن يُؤخذَ من عطائه؟

قليل هو وصف ما جرى في هذه الرحلة بجملة: "لا تكاد تُصدق"؛ فأمرٌ سماويٌّ يجري هناك، وإلى الآن لم يجد الذي عاشه، أو حتى الذي شاهده أو سمع عنه، إجابة للأسئلة المحيرة فيه:

من أين يأتي الزاد الذي يصرف باستفاضة على المشاركين، مدة خمسة عشر يوماً أو أكثر؟

كم وجبة طعام صرفت؟

كم قطعة فاكهة أو علبة عصير أو عبوة ماء وزعت؟

كم شخصاً تطوع للخدمة، وكم ساعة عمل تطوعي أُنجزت؟

كم عدد مواكب الطعام ومواكب العزاء؟

كم علماً موجوداً على الطرقات والمباني وفي أيدي الأشخاص قد تم نصبه؟

باعتقادي أنه مهما امتلكنا من وسائل توثيقية أو إحصائية؛ فمن الصعب جداً أن نجد إجابات دقيقة لجميع هذه الأسئلة وغيرها.

وكلّ ما يمكنني قوله من خلال معايشتي لهذا الحدث ولأول مرة، ومن خلال جرأتي بتوثيق لحظاته في مصفوفة الكلمات:

إنّ الإجـــابة التي نبحث عنها مخفيــة في روايات الحــبّ الخاصــة بأصحابها، التي وإن استنطقناهم وأباحوا لنا بها، لن نستطيع فهمها؛ لأنها إجابة مجهولة دفينة، لا يمكن استيعابها بالعقل البشري إطلاقاً.

ولكن.. يمكن تلمّس بعض تفاصيلها على قسمات وجوههم حين معايشهتم!

لا أريد قتل الحروف والنقاط من حين الاستهلال؛ بل أترك صدى الأحداث والقصص والمواقف، التي لم تزل تتواثب بنفسها إلى ركاب مشاعري، تتحدث بحالها على حال لسان قلمي.

الشيخ إبراهيم القديم

كربلاء المقدسة

المغادرة مع قافلة الزوار

على الرغم من زيارتي للمراقد المقدسة في العراق مراراً، وإقامتي للدراسة فيها لسنوات؛ إلا أنّ فكرة الذهاب لزيارة الإمام الحسين عليه السلام في أربعينيته، كانت بعيدة كلّ البعد عن ذهني؛ لاعتقادي بأنها زيارة مملة ومتعبة، بسبب زِحام ملايين الزوار، الذي من شأنه حجب أجواء الصفاء والروحانية فيها، فحين أفكر في ذلك، يكفيني ما تنقله وسائل الإعلام من أرقام مليونية، ومن صور للأحداث

وغيرها؛ لكسر جناح كلّ رغبة تجتاحني في الالتصاق مع ركب هذا الحدث الإلهي العظيم.

اعتقاد اتخذتهُ منذ فترة من الزمن، تراجعتُ عنه في شهر محرم الحرام، وبالتحديد في يوم ذكرى استشهاد حبيب بن مظاهر الأسدي رضي الله عنه، فلم يمضِ هذا اليوم كما كنتُ أتوقعه حينما أسدل الليل المظلم خماره، وحجبت الشمس أشعتها الساطعة، فما جرى أنّ روحي ونفسي وعشقي وقلبي قد تعلقوا بأصوات القلوب المحبة الواهة لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، في حين مناجاتها وتوسلها بمسجل زواره.

"سجل اسمي يا حبيب"، هذا هو النداء العام للجميع في تلك الليلة من بيُوتات ذكر المصاب؛ الشاعر في أبيات شعره، الخطيب في أبيات نعيه، المشاهد والمستمع في دموع وآهات شجيهما، حتى الأطفال الصغار على عفوية فطرتهم كانوا يتفانون في ذلك النداء.

وغالباً ما تكون زيارة الأربعين هي مخصوص الأمنية التي مُزج شجيها بحرقة الدموع؛ لقرب زمنها وعظيم شأنها، فقد روي عن أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليهما السلام أنه قال: «علامات المؤمن

خمس: صلاة الإحدى والخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم»[١].

التصق رعيل صوت ذلك النداء بجسمي، وتغلل في ذرّات جلدي، وسرى مباشرة إلى قلبي، وظلّ ينغلّ في داخله حينما أطلقه ذلك الخطيب الحسيني، ذو الصوت الشجي من فوق منبره.

جرفني الشعور المُحزن كثيراً، ومن دون أيِّ إرادة صرتُ أنادي معهم بخفة شديدة تشبه الهمس، "سجل اسمي يا حبيب في هالسنة بالأربعين".

ما زلتُ أرقى وأرتفع بأمنيتي في تلك الليلة في صراخي المتعالي، حتى هبطت أصداؤه مع دعوة كريمة بالإجابة.. ورقة ختمت بختم التوفيق للزيارة في سجلِ قدري.

فما هي إلا أيام قليلة مضت حتى لاحت بعدها بوادر الإجابة، التي تمثلت في التسهيل العجيب بقبول إجازتي من إدارة عملي، على الرغم من موقفهم الشديد في رفضها سابقاً، وفي التوفيق الغريب في توفر المال الكافي لرحلتي.

---

(١) المزار ـ الشيخ المفيد: ب ٢٣/ فضل زيارة الأربعين ص٥٣ ح١.

ولا أنسى أيضاً تكوّن صورة المشاعر النفسيّة التي لم تكن عندي فيما مضى، فهناك شيءٌ غريب أنساني شعوري الفاتر، وكأنّ ملكاً مَرَّ عليه ببلسمِ مُعجز فاندمل.. إنّ هتافاته أخذت تقرع سمعي وتستحثني للمضي قُدُماً من دون تردد، وطاقاته كانت تجذبني إليه بصورة لا مثيل لها!

تهيأتُ لرحلتي، وفي أثناء لحظات الوداع بين الأهل والأصحاب أصبحتُ مشلولاً حينما لمعت في الأعين دموعٌ ممزوجة بالولاء في توديعهم، كان لكلّ واحد منهم طريقة مميزة في إظهار مدى اشتياقه للزيارة بلا استحياء.

أتذكرُ من تلك المشاهد التي لم تفارقني حتى بعد تلك اللحظات، مشهد أحدهم وهو يهمس في أذني حينما حضنني بقوة: "لماذا لم يسجل اسمي حبيب؟".

لقد شعرتُ بكلماته التي كانت كالموج العالي وهي ترتطم بشدة في عمق بحر مشاعري، ولم أُدرك شيئاً من مواساته إلا بهمهمة تلتها جملة: "إن شاء الله في السنة القادمة يكون اسمك الأول في سجل الزوار".

IV

نزفتُ دمعاً ممزوجاً بهمس: "الحمد والشكر لك يا الله" في أثناء طريقي للمطار، ثم ظلت حالة الصمت المرتعشة بهيبة كبرياء حمرة عيني تُقلع مع ارتفاع الطائرة شيئاً فشيئاً من الأرض نحو السماء.

أقلع معها جسدٌ إلى عالمٍ نورهُ كصفاء هذا السماء، أقلع معها نبضٌ متعطشٌ كلّه لهفة لرؤية تلك الديار.

كان كلّ شيءٍ أمامي يحتضن مشاعري، ويوحي بترجمة له، الهدوء الذي عمّ الطائرة مهّد درب الطمأنينة في داخلي بلا انقطاع، الغيمة الحمراء السابحة في فلوات السماء أُشاهدها من نافذة مقعدي وهي تناغي جعبة أفكاري، ورائحة السبحة الترابية التي صُنِعت من ترابِ كربلاء المقدسة كانت تفوح في يدي، وتشدّ ذهني حينما يشرد إلى مكانٍ غير مكان صُنْعِها.

هكذا استمرت اللحظات في معتركِ سمو الخيال الصارخ، ولم تغب إلا حينما أعلن قائد الطائرة بشدِّ أحزمة الأمان؛ لقرب الوصول إلى مطار النجف الأشرف.

هبطت الطائرة مع صوت الصلوات على محمد وآله، الذي تعالى حناجر الركاب.

وبعد أن توقفت، هرع معظمهم بالتسابق في النزول بعدما حملوا بأيديهم أمتعتهم الصغيرة.

في مطار النجف الأشرف

أُجزم بأنّ القدرة الإلهية لها يد في تسهيل كلّ ما يجري في هذا المطار، فقد بدأ قلبي بالخفقان حينما صُعق من حجمهِ الصغير، وأمر سعته لهذه الحشود المكتظة فيه.

فما إن وطئت قدماي أرضه حتى ضاعت نظراتي من تتبع لُغاتِهم، أشكالهم، مواقفهم العجيبة وغيرها، وتلاشى كلّ شيء عندي بلمحةِ

بصر أمام صوت الضوضاء الصاخب هناك.. لقد غدوتُ بينهم كقشة ضائعة في تلك اللحظة.

شاهدتُ رجلاً عجوزاً متكئاً على عكازٍ خشبي يبحث عن مكان للصلاة، وامرأةً تحملُ طفلاً رضيعاً يبكي بشدة، وهي تحاول تهدئته مع صراعها لأشدّ حالات الإرهاق من عناء السفر، وجماعةً مفترشة الأرض متوسّدة بأيديها وأمتعتها تحاول النوم، وجماعةً أخرى واقفة في الطوابير تنتظر دورها منذ فترة طويلة وهي تهمهم بنبرة تشي بالاستياء، فجميع هذه المشاهد وغيرها جعلتني لا أنبس ببنت شفة وأنا أراقبهم.

عادت حالتي لطبيعتها، وببطءٍ وتراخٍ؛ حَذرَ الاصطدام بأحد الجالسين أو الواقفين، تقدمتُ إلى مكتب استخراج الفيزا.

ولما وصلتُ إليه، بدأتُ أسترقِ النظر عبر الفتحة المحفورة في حائط الزجاج باحثاً عن أحدٍ هناك. ولما رآني الشخص المسؤول الذي كان يختبئ خلف أكوام الملفات المكدسة على مكتبه، قابلني بابتسامة مسحت أجزاءً من الضياع الذي كان يلاحقني في هذا المطار، أعقبها ترحيبه الحار: "هلا بزوار أبو السجاد".

"أريد بطاقة فيزا"، قلتها وأنا أحاول رد موقفه ذلك بابتسامة عارمة تقطبت لها تجاعيد وجهي.

ناولني ورقة لتسجيل بياناتي الشخصية، ثم قال بمرح: "هذا اختبارك اليوم، وإذا لم تنجح فيه فلن تحصل على شهادة الفيزا". كان يمازحني طبعاً بقول ذلك.

أخذتها وأنا أقول له: "سوف أنجح إن شاء الله".

تسللتُ بعيداً عن مكتبهِ باحثاً عن مكانٍ يُعينني على تعبئة ما في تلك الورقة، ومع كثرة الحشود فقد كنتُ مجبراً على فعل ذلك بأيّ طريقة ممكنة: واقفاً، متكئاً على الحائط، جالساً متخذاً الأرض أو فخذي مستنداً للكتابة؛ فملأتها وأنا متوسّدٌ أمتعتي.

هرعت مسرعاً لتسليمها لذلك المسؤول بعدما انتهيتُ منها.

"كيف كانت الأسئلة؟"، قال المسؤول وقد ارتسمت على وجهه أمارات المزاح مرة أخرى.

"سهلة جداً"، أجبته وأنا أكثر جرأة من ذي قبل.

أنهى إجراءاتي في مهلة وجيزة، ثم سلمني أوراقي وهو يقول: "خادم إلك يا زاير، هل تريد شيئاً آخر؟".

شكرته على عمله وحسن تعامله، ثم انطلقتُ مغادراً بسرعة السهم لإنهاء ما تبقى من أمور دخولي لأرض العراق.

خارج المطار.. متجهاً إلى مقر إقامتي

فور خروجي من المطار شممتُ الهواء العليل والبارد بعض الشيء في تلك اللحظات؛ فتوقفت لأشحن طاقتي منه، وأنا أستعيدُ شريط أحداث ما مضى من رحلتي.

٢٤

وبالرغم من أنّي كنتُ أتوقع مواجهة بعض المشاق القاسية؛ إلا أنه حتى الآن لم يساورني أيّ شعور للقلق، بل كنت متسع الصدر بشدة، أرحب بالقدر كيفما كان ينتظرني، بمرّه وحلوه في رحلتي.

انطلقتُ وأنا أجرّ عربة أمتعتي، ولم أتوقف إلا مرة واحدة فقط لألقي نظرة إلى الوراء؛ لمشاهدة احتشاد الناس للمرة الأخيرة عند أبواب ذلك المطار.

"تاكسي، تاكسي"، صوتٌ كان يحاول أن يجد مكاناً له من بين الضجيج المتصاعد، يردده أحد أولئك الشباب الواقفين على الرصيف طلباً للقمة العيش؛ هذا ما كنت أعتقده قبل أن تُقلّني سيارة صاحبه الصفراء البالية.

كان اسمه "علاوي"، شاب عريض المنكبين، ارتدى ملابس سوداء، وغطى رأسه بقطعة قماش طويلة.

"مساك الله بالخير يا زاير"، قالها علاوي وهو يحاول إطفاء سيجارته.

"مساك الله بالنور والـــسرور"، أجبته بعد أن تحركت السيارة وأنا مشبك يديّ، وعيناي تدوران يميناً وشمالاً في حالة من الذهول بعدد الخيام المنصوبة هنا وهناك؛ لاستقبال الزوار الواصلين للتوّ.

٢٥

حك علاوي ذقنه بإيماءة توحي بالتفكير حينما رآني أسترق النظر عبر النافذة في حالة تشي بالصدمة، وسألني: "هل هذه أول مرة تأتي فيها لزيارة الأربعين؟".

هززت رأسي بمجامع قلبي وكأني أقول له: "نعم".

"هنيئاً لك التوفيق للزيارة"، قالها وهو يتوقف عند إحدى الخيام المنصوبة على قارعة الطريق، ثم أضاف: "تفضل عيني".

"يجب أن ننطلق، فنحن لم نتحرك من المطار، انظر إلى أطراف سوره فهي لم تغب عن أنظارنا بعد"، أجبته وأنا أحاول إمساك باب السيارة من الداخل لمنع ذلك الرجل ـ صاحب الموكب المنصوب ـ من فتحه؛ ولكن محاولاتي باءت بالفشل بعد ثوانٍ من المقاومة؛ فاستسلمتُ وتركتُ مقبضَ الباب لرؤية ماذا سيحدث!

"هلا بزوار أبو السجاد"، "هلا بعيني"، "تفضل، تفضل يا زاير"، صاح صاحب الموكب في وجهي وأنا مترجل بنبرة تشي بالفرحة، وهو يهزّ يديَّ بسلامه الحار، التي لم يتركها إلا حينما أوصلني إلى المكان الذي كان يرغبُ بجلوسي فيه.

قبل أن نجلس تقدم طفلٌ صغيرٌ بسرعة هائلة ـ له عينان بنيتان براقتان حينما تمعن فيهما تجد عفوية وبراءة عجيبة فيهما ـ بكوب ماء مغلف.

تناولته منه وأنا أهمس بصوت منخفض جداً إلى علاوي، "لماذا توقفت هنا؟".

فقال مبتسماً: "لازم تجرب كباب موكبنا".

دقائق حتى أحضر شاب عريض المنكبين، أسمر البشرة، مفتول العضلات، تحزم بقطعة قماش سوداء حول خاصرته، صحنين من الطعام؛ احتوى كلّ واحد منهما على: شيشين من الكباب الطازج، وقطعٍ صغيرةٍ من الطماط المشوي، وقليلٍ من أعواد البقدونس والجرجير.

"هلا، هلا بالزوار"، صاح الشاب وهو يقدم لنا ما لديه بسرور.

فقال "علاوي"، وهو يربت على كتف ذلك الشاب بخفة: "هذا أخي محمد حسين، أفضل صانع كباب في النجف كلها".

ردّ عليه أخوه بعدما أحسّ بنشوة الفخر: "ربما أنا أفضل وربما أنت الأفضل؛ ولكن الأفضل اليوم هو من يخدم أكبر قدر ممكن من الزوار".

أخذوا يتعاركون في هذا الأمر وأنا متأثر من سماع ذلك؛ فقطع والدهما عراكهما وهو يقول:

"كلّ خدماتكما مسجلة عند الإمام الحسين عليه السلام، إن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ الحسين بن علي عند ربه سبحانه وتعالى ينظر إلى معسكره، ومن حلّه من الشهداء معه، وينظر إلى زواره، وهو أعرف بهم وبأسمائهم وأسماء آبائهم، وبدرجاتهم ومنزلتهم عند الله سبحانه وتعالى من أحدكم بولده، وإنه ليرى من يبكيه فيستغفر له، ويسأل آباءه عليهم السلام أن يستغفروا له، ويقول: لو يعلم زائري ما أعدّ الله له لكان فرحه أكثر من جزعه، وإنّ زائره لينقلب وما عليه من ذنب»[1]؛ فإذا كان هذا أجر الزوار، فما بالكما بأجر من يخدمهم. مؤكد بأننا لا نعلم مقداره؛ ولكننا يقيناً نعلم بأنّ الزهراء عليها السلام لن تنسانا في يوم المحشر".

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤٤ ب٣٤/ ثواب البكاء على مصيبته... ص٢٨١ ح١٣.

هدأ الوضع قليلاً، وبدأنا نتناول وجبة الطعام، وخلال ذلك كان "علاوي" يُعرِّفني بكلّ فرد يعبر من خلالنا: "هذا أخي الصغير، هذا ابن عمي، هذا ابن خالتي...".

وقد كنت مطبق الصمت، وعينيّ رأسي تجولان في معاينة المكان بذهول شديد؛ لرؤية كيف كان يعمل هؤلاء البشر يداً واحدة من دون نظام أو رئيس يقوم بتوجيههم.

أيّ نوع من المؤسسات موجود في هذا المكان؟

وأيّ تحفيز قُدم لهؤلاء لكي يعملوا ليلاً نهاراً، ومن دون مقابل؟

أسئلة كانت تدور كالحلقات في داخل عقلي وأنا أتناول وجبتي، فقد كان هناك طباخون، ومحضرون للسلطات، وأطفال يقدمون الماء، وآخرون يرفعون بقايا الطعام، والكلّ كان يسمي نفسهُ خادماً، ويتفانى في عمله من دون مقابل.

والمدهش في كلّ هذا الأمر، أنّ العمل الشاق كان يجري بصورة يكاد الخطأ يكون فيها معدوماً!

قبل أن نغادر المكان قدموا لنا الشاي العراقي المصنوع على لظى الجمرات الهادئة، فتقدمتُ وأنا ممسك باستكانة الشاي نحو صاحب

الموكب "الحاج محمد"، ثم انحنيت أمامه ببطء، "شكراً لك يا حجيّ محمد، خدمة مسجلة عند الزهراء عليها السلام"، قلتها ويدي الأخرى تصافح يده المشلولة نتيجة إصابتها في إحدى الحروب العراقية.

"إن شاء الله، ونسأل القبول"، أجابني بلهفة تشي بالحزن.

انقضت أحداث هذا الموكب، وأوصلني "علاوي" إلى مكان إقامتي في النجف الأشرف؛ وبعدما ساعدني في إنزال حقائبي، قلت له وأنا ممسك بحقيبة نقودي: "كم هي أجرتك؟".

"أستغفر الله، أستغفر الله، أنا خادمك يا زاير"، صاح "علاوي" بنظرة حادة كالسكين في وجهي.

فقلت له: "هذا حقك، فنحن لم نتفق على أن يكون توصيلك لي من دون مقابل".

فقال لي: "ونحن لم نتفق على مقابل، فأنا كنت أصيح "تاكسي.. تاكسي" لجميع الزوار، وأنت توجهت إليَّ.. وهذا هو عملي في ذلك الموكب، فأنا أقوم بأخذ الزوار من المطار وتوصيلهم إلى الموكب لتناول الطعام، ثم أقوم بتوصيلهم إلى أيّ مكان يريدون؛ وإذا لم يكن يتوفر لديهم سكن أقوم بتوفيره لهم بالمجان أيضاً!".

٣٠

أطلقتُ تنهيدة مدهشة في تلك اللحظة، فقد تملك جسدي رعشة غريبة. كنتُ على وشك التشبّث به، وعدم تركه من دون أخذ أجرته؛ ولكن "الشيخ حسنين" مسؤول السكن في مقر إقامتي خرج مسرعاً وهو يبتسم، "لا تحاول معه، لن يقبل أخذ قرش واحد منك، هؤلاء لا يطلبون الأجر منك بل يطلبونه من الإمام الحسين عليه السلام"، قالها وهو ينزل من درجات ذلك الفندق القديم.

أرجعت محفظة النقود إلى جيبي بعد سماع ذلك، ولما تغلغل في نفسي أثر تلك اللحظة بشدة، تمنيتُ أن أكون أنا صاحب التاكسي، و"علاوي" هو الزائر؛ حتى لا يفوتني من أجر هذه الأيام العظيمة.

موقفٌ ولائي جميل لم أزل أغبطهُ عليه حتى الآن.

في مقرّ إقامتي

بالرغم من أنني كنت متشوقاً لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام، لتجديد عهد الولاء له من حين وصولي؛ إلا أنّ تعب السفر قد بدأ يتسلل كالغيمة السوداء في ربوع جسدي، مما جعلني أُؤجل الأمر قليلاً؛ فاستلقيتُ في عتمة الغرفة التي أعدها لي مضيفي الكريم "الشيخ حسنين".

كانت صغيرة جداً، لا تتجاوز مساحتها الثلاثة أمتار في مترين. وبينما كنتُ أحدق في سقفها المهترئ، كان يقاطع هذه اللحظات صوت الزوار بالخارج؛ فمقر سكني في الحقيقة هو مدرسة للدروس

الدينية، تحولت جميع فصولها إلى غرفٍ لمبيت الزوار في الأربعين، وقد قام جميع من فيها من أساتذة وطلاب بالتطوع لخدمتهم.

باتت الموازين شبه معكوسة فيها في هذه الفترة من السنة، فمن الطبيعي أن تجد معمماً بعمامة سوداء "سيّد" يخدم الزوار بنفسه، أو تجد أستاذاً مرموقاً يقوم بغسيل الملابس لهم، حتى مديرها خرج من مكتبه ليشرف على راحة الزوار هناك، ويقوم بتفقد النواقص والاحتياجات بنفسه.

ساد الصمت بعد مرور شطرٍ من الوقت، فأخذت أسترجع أحداث ما جرى في هذا اليوم، ثم أخذني النوم فجأة إلى عمقه من دون سابق إنذار.

زيارة أمير المؤمنين عليه السلام

بعدما اغتسلت غسل الزيارة، ولبست الجديد من الثياب، وتعطرت، كما ورد في آداب زيارته عليه السلام أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا أتيت مشهد أمير المؤمنين عليه السلام فاغتسل غسل الزيارة، والبس أنظف ثيابك، وشمّ شيئاً من الطيب، وامشِ وعليك السكينة والوقار»[1]؛ خرجت من المسكن وأنا أهمس بصوتٍ منخفض: "يا الله".

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٧ أبواب زيارة أمير المؤمنين عليه السلام .. ب٢/ موضع قبره.. ص٢٣٦ ح٣.

٣٤

فجمال تلك الليلة الصافية ببدرها الذي بدا كالأمير المتكبد في صفحتها باكتماله، وبنجومها التي بدت كالأميرات المنتشرة من حوله، استوقفاني، ولم يتركا هذه اللحظة تعبر بسلام؛ بل جعلاني أتأمل السماء وكأني أول مرة أرى هذا المنظر فيها.

كنت مستغرق النظر لأعلى لما قاطعني صوت بوّاب الفندق: "لا تنسانا من الدعاء"، قالها بصوت رخيم كالناي وكأنه يودعني.

فأجبته: "منّا الدعاء وعلى الله القبول مولانا".

انطلقتُ نحو مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بخطى قصيرة متأنية، تأسياً بما ورد في آداب زيارتهم عليهم السلام من جهة، ولأنني كنتُ معجباً بما أراه من مناظر وأحداث تدور من حولي، التي لم تزل تتسلل إلى إلهام مخيلتي بذهول شديد من جهة أخرى.

فشوارع مدينة النجف لم تتغير، كما تركتها على حالها آخر مرة كنت فيها:

بيوت شبه متداعية تفوح منها رائحة الطوب القديم جرّاء تأثير عوامل الزمن عليها، اتخذت بعض الطيور نوافذها مقراً لأعشاشها، وشوارع شبه معبدة ملتوية ملأتها مستنقعات الماء الصغيرة وأكوام الأوساخ المركونة بجوانبها، وحينما ترفع رأسك في وسط أزقتها

الضيقة فإنك لن ترى سماءً صافية؛ بل ستنبهر من رؤية كمية عدد أسلاك الكهرباء التي تشابكت كنسيج عنكبوت عملاقة.

ولكن الأمر الجديد الذي لفت عنايتي في أبنية وشوارع النجف هذه المرة، كمية أقمشة السواد التي توشح بعضها بها بالكامل، وتدلى من أسطح البعض الآخر، والعبارات المشجية التي طرزت جدرانها، وكأنها تُعبّر هي أيضاً عن مدى حزنها مع قاطنيها، ومع العابرين من خلالها في هذا الوقت.

وفجأة.. قطع تأملي في تلك الأبنية والشوارع صوت رجل عجوز محدودب الظهر تعمم بقماشة سواد، وهو يلوح بيده في دعوة منه إلى شرب الشاي المجاني من كشكه الصغير المتواضع، "اشرب شاي يا زاير، اشرب شاي يا زاير".

وصوت صاحب عربة، طفلٌ صغيرٌ اتسخت ثيابه من أتربة الشوارع، يحاول مساعدة امرأة مسنة في الصعود على سطح عربته من أجل إيصالها إلى المرقد الشريف. كان يبتسم لها ابتسامة عميقة رحبة؛ رغم اختفاء قسمات وجهه خلف الغبار الذي تراكم عليه، وكانت هي تدعو له بعبارات لطيفة ملأتها كلمات الشكر: "شكراً لك يا ولدي.. الله يوفقك.. الله يكفيك شرّ الدنيا والآخرة..".

٣٦

وصوت قدور اسطوانية الشكل كبيرة، وضعت فوق الأفران وعلى أرصفة الشوارع، يوحي تكدس اللون الأسود عليها بكثرة الطبخ فيها.

وصوت أشجاني وهو ينبعث من جدار حسينية لخطيبٍ كان ينعى الإمام الحسين عليه السلام.

الأصوات كانت أشبه بطنين خلية نحل متصل، لا يوجد فاصل هدوء بينها، فتداخلها كان متضاداً؛ ولكن كان لهذا التضاد لذة تكاد تكون شيئاً آخر؛ بل هي فعلاً شيءٌ آخر.

أكملتُ بعدها المشي بتأنٍّ في ركب ذلك الحشد الغفير، الذي ما زال يزداد في كلّ لحظة وهو يملأ مساحات الشوارع، مستعرضاً صور الولاء ومناظر خشوع الزيارة، حتى ضاقت الخطى ولم يعد هناك مسافة كافية لأَتقدم خطوة واحدة.

كنت مطأطئ الرأس في أثناء ذلك خوف الاصطدام بأقدام أحدهم، ولما رفعت رأسي للحظة، دبّ في عظامي الحميم الذي صرعني بالدموع، لما تعلق بصري بشعاع تلك اللافتة المعلقة من بعيد، "السلام عليك يا أمير المؤمنين"، وساق شعاعها جذبة نزعت روحي من جسدي بعناية إلهية خاصة.

٣٧

أَتَرى، هل هو عروج الروح الذي يحكى عنه؟

كنت أتساءل حينما هاج قلبي وماج، وأنا أردد كلماتِها من دون إرادة مني، فالنشوة الغامرة والفُتر والخَدَر الذي سرى في جسدي، أخذوا يدغدغون كلّ ذرة في وجوده.

انفتح الطـريق، وعـادت المسافـات تنفتح مـرة أخرى كالفوهة أمامنا. عدت أسير وبصري مسلط نحو تلك اللافتة، أستشف منها عناصر ذلك العالم الذي انتقل قلبي إليه؛ وما زلت كذلك أرقى وأرتفع فيه، حتى سلبني إحساس الضرب بخفة على ساقي ذلك الشعور.

"انتبه يا زاير"، صاحت تلك المرأة التي افترشت الأرض بفراش بالٍ صغير؛ مخافة إيقاظ أطفالها النيام.

"أنا آسف يا أختي"، قلتها بعدما أدركت بأنّ قدمي قد ارتفعت فوق يد ابنتها الصغيرة، وبحركة سريعة أزلتها، وأنا أعاين بصدمة عارمة حالها وحال أطفالها النيام، وأتساءل: أنّى لهم استطاعة النوم في وسط هذا الزحام والضجيج؟!

٣٨

ولكن.. حينما اقتربت من جدار المرقد الشريف، بات منظر رؤية الناس المفترشة للأرض من حوله مألوفاً لدي، فقد خُيِّل لي من منظر رؤيتهـم:

مدى عطف ورأفة أمير المؤمنين عليه السلام مع الأطفال اليتامى والمساكين، وكيف أنه كان يجلس محاطاً بعدد منهم في شوارع الكوفة، ويداهُ الشريفتان تمسحان على رؤوسهم برفق.

ذلك المنظر أوحى لي نفس معالم هذه الصورة، فالعوز هو من جعل أولئك الزوار يحيطون بمرقده الشريف؛ إما لعدم توفر المال الكافي لديهم للسُّكنى، وإما لامتلاء المساكن المتوفرة لهم بالمجان وتكدسها، فهم كالأيتام لجأوا إلى أكفّ جدرانه من أجل أن ترعاهم وتفيء لهم بالظلال.

لقد خنقتني العبرة من تخيل ذلك وأنا أدنو على مهل وبُطء مقرباً بين خطاي نحو تلك القبة المذهبة، التي ما إن لاح لي سُطوعها حتى بدأ قلبي يقذف دقاته بشدة.

وقبل أن أصل إلى باب المرقد الشريف شاهدتُ طوابير الناس التي تنتظر واقفة لإيداع أحذيتها في صناديق كشوانيات الأحذية، فوقفتُ حائراً، وأنا أتساءل: "ماذا أفعل الآن؟ هل أترك حذائي في أيّ

مكان؟"، إنّ عدد الأحذية المرمية الضائعة هنا وهناك أوهمني بأني لن أجد حذائي لو تركته من دون إيداع؛ فبدت واضحة على وجهي ملامح الحيرة وأنا أحوم حول ذلك الباب الخشبي الكبير ـ المسمى باب القبلة ـ على أمل أن أجد مكاناً أترك فيه حذائي.

"ماذا بك يا زاير، هل تبحث عن شيءٍ ما؟"، قالتها امرأة مسنة، كانت تتناول قطعة من الخبز الأبيض مع كوبٍ صغيرٍ من الماء، قد وضعتهُ بحذر شديد بالقرب منها مخافة انسكابه من أثر أقدام المارة.

"أبحث عن مكانٍ أودع فيه حذائي يا أمي"، أجبتها بخجل.

فقالت: "صناديق إيداع الأحذية مشغولة منذ ساعات، فتلك الطوابير المصفوفة لم تتحرك إلا قليلاً مُنذ أن جلست؛ ولكني سأحتفظ بحذائك إن أردت تركه بجانبي، فأنا لن أبرح من المكان حتى الصباح".

سلمتُ أمري وتركتهُ عندها، وقبل أن أهمّ بالمغادرة صاحت ليّ وهي تلوح بيدها: "لا تنساني من الدعاء في زيارتك".

أصبح الهواء نقياً وحياً، حينما وصلت إلى ذلك الباب الذي لثمته بقبلاتي تبركاً به، وتوقفت عنده قليلاً لأقرأ كلمات الأذن للدخول على سلطان السلاطين.

"تحرك يا زاير، تحرك لا تعطل الطريق"، صاح بنبرة مؤدبة خادم المرقد الشريف الذي اعتلى عتبة مرتفعة عن الأرض، وهو يشير إليّ بعصاه التي كسا نهاية طرفها ريش النعام المسود قليلاً، فتحركت مع جموع الزوار الذين راحوا ينادون في أثناء دخولهم، "لبيك يا حيدر، لبيك يا علي".

وقبل أن نصل إلى مقامه عليه السلام كانت عيناي تارة تنظر أمامي لمعاينة خطواتي، وتارة تنظر إلى الزخارف التي ملأت الجدران والأعمدة، وإلى ثريات الكريستال التي شع منها نور خافت جميل يُشعرك وكأنك في فردوس جنة من الجنان التي تنقُل صفاتها الآيات والروايات، فانشراح الصدر والشعور بالخفة والصفاء حالات كانت تغطي نفسي منذ وقوفي على باب المرقد الخارجي؛ بل منذ عقد العزم على زيارته عليه السلام.

وحينما وصلنا إلى خارج باب المقام الشريف الذي كُسِيَ بقطع الذهب البراقة، وقعتُ كما يقع بعض الزوار بلا إرادة ألثم الأعتاب، وأنا أعيد أذن السلام وأردد ما تخالجني به نفسي من مشاعر في تلك اللحظة.

"السلام عليك يا أمير المؤمنين، عبدك الواقف بابك، جاءك من شقة بعيدة، يرجو فكاك رقبته من النار، ويسألك العفو والمغفرة والشفاعة له ولمن قلده الدعاء والزيارة".

وقفتُ بعد أن تملك جسدي شعور الرهبة، ولم أُقَدم خطواتي إلا حينما لثمت الباب أيضاً بقبلاتي، ومسحت عليه بكفي، ثم مسحتها على وجهي التماساً للبركة.

وبينما أنا أتقلب في تلك اللحظات بين صور الروعة والجمال، ومشاعر الرهبة والخشوع، هبّ نسيم خَضِل سرت ذراته في داخلي أكثر مما لامَسَ بشرتي، ففعل فعل السحر في نفسي، إذ أزاح مني كلّ وَجَل وروع.. إنه النسيم الخارج من غرفة المرقد الشريف.

تعالت أصوات النداء مدوية هذه المرة بصورة تجتاحها نبرة حزينة، "لبيك يا حيدر، لبيك يا علي"، في صفوف الحشود، فالكلّ كان له في هذا الموضع شأن: الباكي، الرافع يديه بالدعاء، والجاثي على قدميه بانكسار، كانوا جميعهم مختلفين في أحوالهم وما يجمعهم إلا توجه أجسادهم بمشاعرها ودموعها وأصوات نحيبها، نحو ذلك المقام الذي كُسيت قبته بقطعة قماش سوداء كبيرة، وتغطت أطرافه العلوية بقطع الذهب المنقوشة بدقة عالية مع جوهر الياقوت الحمراء

التي تشكلت بأسماء بقية الأئمة عليهم السلام، وأما أطرافه السفلية التي تعلقت بها أكفّ أجساد الزوار وهي تسأل صاحب المقام ما شاءت من الحاجات والطَلِبات، فقد مُزجت في نقوشها قطع الذهب والفضة، وفُتِحت بعض أجزائها بشبابيك تطل على قبر الإمام عليه السلام من الداخل.

لحظات كنتُ أمتثل لكلّ خطوة لتاليتها باستسلام، وكأنه قانون لا مناص من التزامه لمن هو مثلي، فقد حملني تراصّ الحشود نحو الباب الآخر بسرعة هائلة؛ لأنّ عدد الزوار وضيق المكان، جعلا من المحال على مثلي الوصول إلى ذلك الشباك.

وقبل أن أدير ظهري، وأشح ببصري وأنا خارج، ناولني شيخ كبير من أهل بادية العراق كتاباً للزيارة، هذا ما كانت توحي إليه غترته المنقطة بالأسود والأبيض، وعقاله المصنوع من الوبر، وعباءته الحمراء التي اعتلت كتفيه، وهو يقول بنبرة مزجها مع الدموع التي مسحها بأطراف أكمّه: "لا تنساني من الدعاء يا زاير". أخذته منه بسرعة وأنا أمسحُ دموعي التي كانت طاقتها الروحية تتلاعب بي شيئاً فشيئاً حتى رمتني خارجاً.

٤٣

على الرغم من كثرة الزوار في صحن الإمام عليه السلام إلا أنني فزتُ بمكانٍ صغيرٍ هناك. ولما استقرّ بي المثول فيه، شاهدتُ صوراً للجالسين، بعضها كان يبش في وجهي ببِشر، وأُخرى تدنو مني وتقترب بخفة مرعبة.

فلا أنسى أولئك الزوار الذين اجتمعوا على شكل حلقة دائرية وأخذوا يزورون بشجاء، لقد كان أحدهم يضرب رأسه في الجدار وهو ينادي: "عفوك يا ربّ من نارك"، وآخر يلطم وجهه بكفيه وهو ينادي: "هل من توبة لعاصٍ مثلي لديك؟".

ولا أنسى صوت تلك المرأة التي غطت جسدها بخمارٍ أسودٍ طويل، وهي جالسة في زاوية بالقرب مني تبتهل بالدعاء، وتنوح كالحمامة المثكولة حينما ينقطع منها نفس الكلمات.

ولا أنسى طالب العلم الذي كسر وقاره، وأنزل عمامته البيضاء في حضنه حينما اشتد صوت نعيه في أطراف المكان، وكيف كان يضرب برجليه الأرض وهو في منتهى اللوعة والأسى.

الحقيقة أنّ البكاء أمرٌ تعايشت معه بعد ثوانٍ قليلة من دخولي لمرقد الإمام عليه السلام فالكلّ هناك كان يبكي، ويتقرب بدموعه الحارقة: طلبة العلم، رجال، نساء، شباب وشابات، حتى الأطفال الصغار

كانوا يبكون ويكسرون قلوب المارة بدموعهم التي انسابت كحبات لؤلؤ براقة فوق خدودهم المتوردة.

ردّ نظري إلى كتاب الزيارة الذي ناولني إيّاه ذلك الشيخ الكبير، وشرعتُ بقراءة مقدمة الزيارة كما تعلمتها من والدي ـ رحمه الله ـ حينما كان يصطحبني معه لمثل هذه المراقد المقدسة: "أزور سيدي ومولاي، ومعتمدي ورجاي، وذخري وذخيرتي في آخرتي ودنياي، مولاي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام زيارة مني ونيابة عن والدي ووالد والدي، وأهلي وجيراني وأخواني، وبالخصوص من قلدني الدعاء والزيارة، قربة طاعة إلى الله تعالى".

وقبل أن أدخل في صلب الزيارة جلس رجلٌ لا أعلم من هو؛ لأنّ رؤية ملامح وجهه كانت من المحال وهو في موضعه ـ خلفي من جهة اليمين ـ، وقال: "اِرفع صوتك في الزيارة يا ولدي".

علمتُ بأنه يريد أن نزور سوياً لنيل أكثر فرص القبول، فشرعتُ في الزيارة بحرقة قلب وتأنٍّ، جسدتُ فيها جميع مشاعر الوله والحنين، ومشاعر الانكسار والتضرع والاحتياج.

ولما انتهيتُ تقدم بالقرب مني، وهو يسحب جسده على رخام الصحن الشريف حتى جانبني، "تقبل الله منا ومنك"، قالها وهو مطأطئ برأسه، ويدير مسبحته السوداء في كفه.

التفت يميناً لرؤية ملامحه، فإذا هو ذلك الشيخ الكبير الذي ناولني كتاب الزيارة في داخل المقام، "تقبل الله من الجميع يا شيخ"، قلتها وأنا أبدي له اهتماماً بسؤال آخر: "من أين أنت يا شيخ؟".

"أنا من الناصرية، جئت ماشياً أزور أمير المؤمنين عليه السلام".

فسألته: "كم يوماً قضيتها بالطريق؟".

أجاب بنبرة تشي بالافتخار، ويده تلعب في مسبحته: "عشرة أيام، مرت كأنها لحظة في الطريق... الروحانية، والخدمة التي يقدمها خدمة المواكب الحسينية لعجوز مثلي جعلتني أنسى أجزاءً كثيرة من مشقة السفر ماشياً.. وإن شاء الله سوف أخرج غداً ماشياً لكربلاء؛ لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، ولتقديم كتب الزيارة إلى زواره هناك".

لم أتمهل في سؤاله لما انتهى: "لماذا تقدم كتب الزيارة للزوار؟".

اعتدل في جلوسه، ولملم أطراف عباءته في حضنه، ثم قال: "يا بني، أنا شيخ كبير فقير، لم أتعلم في صغري القراءة أو الكتابة.. والآن

في هذا العمر حينما أوفق لزيارة الأربعين، أقوم بمساعدة الزوار في الحصول على كتب الزيارة، آخذها من على الرفوف وأقف بها عند باب المقام لأناولها إيّاهم، أو أقوم بجمعها من على الأرض ومن فوق الروازين وأعيدها في مكانها. أتمنى أن يكون هذا القليل خدمة محسوبة عند الإمام عليه السلام فقلبي دائماً منكسر في هذا الوقت؛ لأني لا أملك شيئاً أقدمه للزوار".

خنقني حواره، وتمنيت أن يطول بيّ المكوث معه، خصوصاً حينما أعجبتُ كثيراً بمشاعر هذا الرجل؛ فعلى الرغم من فقره وأميته؛ إلا أنه حاول أن يصنع له اسماً في سجل خدمة الزوار.

قد يكون ما يفعله هو أمر بسيط في نظر البعض؛ ولكننا لا نعلم مدة ثوابه، خاصة حينما يقترن بنية صادقة صافية، كنيته البدوية البسيطة.

ودعني وداعاً مشحوناً بالحرارة، وهو يلثم قبلاته على خدي، ورحل وأنا أنظر إليه نظرة إعجاب، ولما غاب بعيداً، تذكرتُ أني لم أسأله عن اسمه؟

كانت حرارة الشمس على وشك البدء بعدما انتهيت من الأدعية والصلوات المستحبة بذلك الصحن الشريف، فنهضت بتثاقل شديد، وكأنّ روحي تأبى مغادرة المكان بعدما التصقت بروحانيته.

خرجتُ من الصحن مودعاً وأنا مغرورقُ الدموع، لاهجُ الشكر لله سبحانه وتعالى تارة، ومخاطبُ الإمام عليه السلام بهذه العبارة: "اللهم لا تجعله آخر العهد منَّا" تارة أخرى، ووجهي مستقبلاً ذاك الشُباك الذي لم أرَ مثيلاً له قطّ.

ولما صرتُ خارج جدار المرقد الشريف، تذكرت أمر حذائي وتلك العجوز المسنة؛ فانطلقتُ مسرعاً إلى مكانها.

من بعيد، فاجأني منظر رؤيتها واقفة، أحنت ظهرها بالاتكاء على عصاة خشبية صفراء اللون بيد، وكانت اليد الأخرى تمسك بحذائي من أطرافه.

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا حجية"، قلتها وأنا أبتلع أنفاسي في حالة من الخجل والصدمة.

"تقبل الله يا زاير، أتمنى أنك لم تنساني من الدعاء عند الإمام عليه السلام "، أجابت العجوز وهي تحاول الجلوس على الأرض، وكأنّ الوقوف قد أتعبها وأعياها.

"ما نسيتكِ.. لقد دعوتُ لك في أغلب اللحظات"، أجبتها بسرعة، ثم أضفت سؤالاً بعد أن خفضت صوتي ليصبح دمدمة سرية، كأني أخشى مما سأسمعه من إجابة منها: "ولكن لماذا أراكِ تقفين بحذائي هكذا؟".

فأجابت: "لقد جاء خُدام المرقد الشريف إلى هنا من أجل تنظيف أرضية المكان بالماء، فنقلت فرشتي إلى مكان آخر، ولما خفتُ من مجيئك، وعدم رؤيتك لي بالمكان الذي اتفقنا عليه، تسمرتُ واقفة هنا بانتظارك!".

اعترتني مشاعر الخجل أكثر، ونزلت منكباً أعتذر لها بشتى صنوف الاعتذار، وهي تقول: "أستغفر الله يا ولدي، أنا خادمة لزوار مولاي أمير المؤمنين عليه السلام .. أستغفر الله. ولكن ادعُ لي في زيارتك دائماً بأن أوفق للذهابِ ماشيةً لزيارة الإمام الحسين عليه السلام . فالكبر قد أخذ مني مأخذه، ولم تعد قدماي تحتملان طول المسافة كالسابق، وأمنيتي الوحيدة في آخر عمري، هي الذهاب ماشية مع الزوار إلى كربلاء. أتمنى أن تغبر عباءتي من تراب زواره، أتمنى أن أبيت ولو ليلة واحدة تحت قبة حبيبي الإمام الحسين عليه السلام"، قالتها وقد جرت الدموع على خديها بغزارة.

فقــلت لها: "إن شـــاء الله توفقــين يــا حجية، ســوف أدعو لكِ، وأنتِ توجهــي أيضاً بالدعــاء إلى الله ﷻ من تحت قبة والده أمير المؤمنين عليه السلام، ويقيناً سوف توفقين للزيارة إن شاء الله ﷻ وتنالين مرادك.. وشكراً لك على احتفاظك بحذائي، وأعتذر على جعلك واقفة لانتظاري وأنت امرأة مسنة".

تنحيتُ جانباً لأفسح لها الطريق لتعود إلى فرشتها. كانت المسكينة ترمقني بنظرةِ وداعٍ عميقة أثناء مشيها المتراخي والبطيء، وهي تتمتم بعبارات الدعاء.

عدتُ إلى مقرّ سكني وأنا أقلب في فكري الأحداث والشخصيات التي التقيتها في هذا اليوم، التي لم تخلُ من الأسئلة التي أخذت تضرب بجذورها في أعماق قلبي، منها:

ما الذي يجعل هؤلاء ـ الشيخ الكبير، والمرأة العجوز ـ تحمل مشاق السفر للزيارة؟

وما الذي رأوه في زيارتهم لأربعينية الإمام الحسين عليه السلام سابقاً، وجعلهم يدمنون عليها رغم كِبَر سِنِّهم؟

أتمنى أن أحصل على إجابات لهذه الأسئلة خلال رحلتي.. هذه كانت أمنيتي الوحيدة قبل أن أدخل إلى مقرّ سكني.

مقهى في النجف الأشرف

كان الدخانُ الذي ينفثه المدخنون من نَراجيلهم يحاول أن يجد طريقه للخروج من ذلك المقهى الصغيرة، فما إن فتحتُ بابه حتى استقبلتني كثافته الثقيلة، التي أخذت تتلاشى سريعاً مع نور الشمس الساطع خارجاً.

"السلام عليكم"، حيَّيتُ بها المتواجدين قبل أن أضع أولى خطواتي بداخله، فردوا جميعهم بعد أن سحبوا أفواههم من نراجيلهم بتثاقلٍ شديد، "وعليكم السلام".

تمعنتُ في المكان بنظرة سريعة أبحثُ فيها عن كرسيٍ فارغ أجلس عليه، فلم أجد إلا ذاك القريب من فتحةِ الباب.

اتجهتُ إليه وأنا أحاول إبقاء المكان على هدوئه، وعلى صمت الألسن المطبق فيه؛ فالأصوات التي تسمعها في داخل هذا المقهى ـ إن لم يكن في كلّ مقهى ـ؛ صوتُ النراجيل، وصوتُ أكواب الشاي الزجاجية فقط. لم يكن هناك جهاز تلفاز، أو جماعات تتحدث مع بعضها بعضاً، الكلّ كان مشغولاً مع نرجيلته، ويعيش حالة من الخدر التي أشبه ما تكون بحالة التأمل المحزن.

ولما استقر مثولي على ذلك الكرسي، صاح أحدهم بصوتٍ اخترق هدوء المكان كالرعد: "مسّاك الله بالخير".

أجبته وأنا أحدّق في عينيه الملتهبتين: "مسّاك الله بالنور والسرور"، ثم أعقبَ ذلك تقاذفُ تحيات البقية عليّ.

عاد الجميع بعد هذه اللحظة ينفثون الدخان إلى أعلى ليعيدوا جوّ المكان على ما كان يبدو عليه؛ فالظاهر أنّ لحظة دخولي قد غيّرت طبيعة المناخ المأنوس عندهم.

وبينما كنتُ أحاول إخفاء صرير ذلك الكرسي المتهالك بتغيير وضع جلوسي عليه، اعتراني شعورٌ بالإثارة حينما وقعت عيناي على

٥٣

تلك الأرضية المليئة بالأحافير الصغيرة، وعلى اللوحات التي غطت حائط الجدار.

كان هناك لوحة لفتاة ذات ضفيرةِ شعرٍ مذهبة، بقدمين حافيتين رُسم عليهما وشمٌ أسود، وحول كتفها التفّ شال أحمر مطرز، ومن صورة النرجيلة الفخارية المزينة التي كانت تمسك بها بغرور شديد؛ أظنّ أنها كانت من فتيات العهد الصفوي.

وكان هناك لوحة لشلال متدفق، وهو محاط بأشجار الصنوبر والقيقب التي رسمت بدقة متناهية.

ولوحة رسمت بقلم الرصاص لشابّ محاط بعدد من النراجيل الخشبية، توحي معالمها وطرفها الممزق بأنّ لها حكاية جميلة!

وبعد دقائق تقدم نحوي شاب انهدلت خصلات شعره الطويلة على كتفيه، وغطى الوشم الأخضر المسودّ أغلب نواحي ذراعه الأيمن، وهو يمسك بنرجيلته.

كانت قسمات وجهه متوترة قبل أن يجلس بجانبي ويسألني: "هل أنت من أهل الخليج؟".

أجبته: "نعم".

٥٤

أبعد شعره عن وجهه بأصابعه الطويلة، وقال مبتسماً: "كنتُ أراك تنظر إلى تلك اللوحة المرسومة بالرصاص بعناية فائقة، لقد رسمتها في أول أسبوع فُتح فيه هذا المقهى، قبل خمس سنوات مضت تقريباً".

"هل أنت صاحب المقهى؟ إذاً من هو ذلك الشاب الموجود في اللوحة؟"، قلتها وأنا متلهف لسماع ردّه.

أطرق رأسه نحو الأرض قليلاً، وكأنه يحاول استنطاق ما في خبايا ذاكرته من ألم، وأخذ مع إطراقته هذه نفساً عميقاً من نرجيلته وهو يهزّ رأسه بصمت، وكأنه يقول لي: نعم.

ثمّ أضاف: "لقد تخرجتُ من الجامعة، ولم أجد أيّ وظيفة أعمل بها.. ففتحنا هذا المقهى شراكة أنا وأصحابي الذين كان لهم حظّ عاثر مثلي. وإنّ الشاب الذي تراه في هذه اللوحة، هو واحد من أولئك الشركاء؛ لكنه استشهد قبل عام في مواجهة الدواعش الذين احتلوا بعض أجزاء أرض العراق.. لقد كان شريكاً مخلصاً ومحبوباً عند جميع زبائن المقهى.

على أيّ حال، إنّ ما نكسبه من هذا المقهى الصغير يكفينا في سدّ رمق جوع أفواه أطفالنا، فهو أفضل من حال الجلوس دون عمل".

"تحدث عن حظك الذي ما زال نائماً تحت القاع يا "سيد علي"، أما حظي فاتركه جانباً، لقد بدأ يظهر لي هذه الأيام، ويبشرني بآمالٍ عديدة"، قالها شخص على نحو مفاجئ، وهو يطوّح بيده.

كان يجلسُ بعيداً عنا بقليل، ولم أكن أعلم لماذا قال ذلك الكلام؟

هل قاله من أجل أن يمسح هالة التأثر الحزينة التي أخذت تطفو على ملامح السيد علي حينما ذكر صديقهم الشهيد؟

أم قاله هازئاً به؟

يقيناً كان هازئاً به؛ لأنه أعقب ذلك موجة من الضحكات عالية النبرة في المكان؛ وكأنّ الجميع كان ينتظر حدوث ذلك.

وبعينين حزينتين ردّ السيد علي، بعد أن هزّ كتفيه باستخفاف، وهو يلتفت يميناً ويساراً، وينظر في عيون الموجودين: "كما تشاء، ولكن في جميع الأحوال لن تبرح مكانك هذا، فنحن منذ سنوات نتأمل عودة رغد العيش لِبلادنا، ونواسي أنفسنا بأنّ الغد سيكون أفضل من اليوم.. لقد تعبنا والله من العيش في الفقر، ومن مؤاخاته، حتى ضاق حاله منا، فلو كان لَلفقر لسان لنطق؛ ولكن ماذا نفعل؟ ليس لنا إلا الصبر والدعاء، والعيش في عالم غنوصيِّة الأحلام حينما يضرب الزمان بمطرقته على رؤوس الفقراء أمثالنا.

حبيبي زيد، أعتقد أنّ الحظ الذي تتكلم عنه الآن، هو حلم من الأحلام التي راودتك بالأمس في المنام؛ أليس ذلك بصحيح؟"

عادت موجات الضحكات العالية مرة أخرى؛ ولكنها كانت ممزوجة بشهقة ولوعة هذه المرة، ولم يكن بإمكاني أن أفعل شيئاً سوى الابتسام بهدوء مجاراة لهم.

خيّم صمت مرعب، وذابت الأصوات والضحكات من حولنا واستحالت غباراً بعد ذلك الحوار. حبس الجميع أنفاسهم وكأنهم ينتظرون حدوث شيء أكثر صدمة، شيء أعظم مما جرى!

ما زلنا هكذا حتى تفاجأنا جميعاً برؤية باب المقهى يُفتح بشدة، ويدخل منه مجموعة من الشباب كثيفي اللحى، يحملون حقائب صغيرة على ظهورهم، ومعهم علم أحمر كُتِب عليه عبارة "لبيك يا حسين" باللون الأسود.

لم تكن رؤيتهم حدثاً غريباً؛ ولكن إزعاج الضجة التي أحدثوها أثناء دخولهم وأثناء جلوسهم، هي ما جعلت الأمر يبدو غريباً، وغير معتادٍ في هذا المقهى.

استوى السيد علي واقفاً، وسار بتؤدة وتأنٍّ نحو الباب فأغلقه برفق، وهو ينظر باتجاههم من دون أن ينبعث من شفتيه أيّ صوت.

وبما أنّ عدد الأماكن الفارغة كانت تعدّ بالأصابع، نهض بعض الموجودين من تلقاء أنفسهم وغادروا المكان؛ ليفسحوا مجالاً لهؤلاء الشباب القادمين للتوّ.

شعرتُ لوهلة بالخشية منهم على نحوٍ غريب، ومن أجل أن أخفي هذا الشعور، شغلتُ نفسي بالكتابة في أوراقِ مذكراتي. وبينما كنتُ منهمكاً في ذلك، قدّم لي أحد الشباب القادمين مؤخراً قطعة من الحلوى، وهو يقول "بفرما آغا"، فعلمتُ أنه فارسي الأصل من هذه الجملة، فأخذتها منه وأنا أومئ له بعلامات الامتنان من خلالِ لغةِ جسدي؛ لعدم إلمامي باللغة الفارسية طبعاً.

"كوجا آغا؟"، قالها بعدما عاد وجلس في كرسيِّه المقابل لوجهي.

"عرب ستان"، ردّ عليه السيد علي، وهو يمسّد لحيته.

انكمش وجه ذلك الشاب الفارسي، وأخذ يخبط صدره بقبضتيه، ويتكلم بعبارات لم أفهم منها شيئاً؛ ولكني أحسستُ بأنها ليست جيدة.

" ماذا يقول؟"، سألتُ السيد علي.

فقال: "لا تشغل بالك كثيراً، فالزوار العجم فيهم الجيد وفيهم السيئ، إنهم كباقي الزوار تقريباً، ونحن نعتبرُ الجميع ضيوفاً عند أميرِ المؤمنين عليه السلام وعند ابنهِ الإمام الحسين عليه السلام".

تظاهرتُ أنني لم أسمع أيّ عبارة من ذلك الشاب، ثم أخذتُ نفساً عميقاً، وقلتُ لسيد علي: "حدثني عن الأربعين.. ماذا يفعل أهل النجف لِلزوار فيه؟".

"هل تقصد كيف نخدم الزوار في أيام الأربعين؟"، قالها وهو ينقر بأصابعه على الطاولة، ونظره متجه نحو أولئك العجم.

فقلتُ له: "نعم".

أدار ظهره بعدما كان يجلس متجانباً، وأخذ نفساً سريعاً من نرجيلته، ثم قال: "دعني أحدثك ماذا يفعل أهل العراق جميعهم مع زوار الأربعين، وليس فقط أهل النجف، وسوف أتكلم معك بشفافية تامة، أو بالمعيدي كما نعبر عنه نحن العراقيون.

شعبُ العراق رغم الظروف القاسية التي مرّوا ويمرون بها، ورغم عيش أكثر من نصفه تحت خط الفقر؛ إلا أنّ لديه تعلقاً واعتقاداً عميقاً بأهل البيت عليهم السلام وخصوصاً بواقعة عاشوراء، وما جرى فيها من مآسٍ ومصائب.

هذا التعلق حينما تنظر إليه الآن خارجاً؛ سوف تراه منصباً في كلّ الأشياء، يهزّها بشدة قبل حلول يوم الأربعين.

القلوب؛ يمسّها جنون العشق الحسيني، فلا تعرف المعقول واللامعقول في معنى العطاء، تهب ما في أجسادها من طاقة، وما في أيديها من مال.

والأرواح؛ تُصابُ بحالة انفصام لا يمكن تشخيصه بأدق مجاهر المشاعر البشرية، فهي تتخلى عن دنيء صفاتها، وتلبس جمال لباسها الظاهر في حسن التعامل والمعشر مع الآخرين، بجميع مستوياتهم وجنسياتهم وأعمارهم.

أعترف بأننا لسنا شعباً مثالياً، أو حتى قريباً من ذلك، فنحن كغيرنا يوجد لدينا نقاط إيجابية وأخرى سلبية؛ ولكن في زيارة الأربعين بالذات، فأنت لا ترى إلا جانباً واحداً من شخصياتنا، وهو الإصرار على أن نكون مثاليين في كلّ شيء يمتّ بصلة في هذه القضية.

انظر.. كيف تتسابق المواكب في تقديم أفضل ما لديها؟

وكيف تتسابق النساء والرجال في الخدمة بصورة يعجب منها كلّ من لامس أثرها؟

بل انظر.. كيف تتسابق وتفتخر البيوت والمدارس والحوزات والجمعيات بفتح أبوابها، وبأعداد الزوار الذين نزلوا فيها في كلّ يوم وليلة؟

لا أقول لك بأنّ ما تراه من سهولة في تدبير أمرِ ملايين الزوار ينشأ على أيدينا؛ بل أقول لك إنّ كلّ شيء يمشي على سنة ناموس حبهم عليهم السلام، وما نحن إلا أسباباً بشرية في بحر تدبير عناية الألطاف المحمدية الإلهية.

سوف أحكي لك حكاية قصيرة لم أخبرها لأحدٍ سابقاً، حاول أن تستشف منها مصداق ما قلته لك:

"كنتُ جالساً في ذات مرة عند باب هذا المقهى أتأمل الطريق، ومنظر الغروب الذي بدأ يستعدُّ لإنزال ستائره الكحيلة.

وفجأة؛ تقدم رجلٌ قصير البنية، يحمل معه عدداً من أكواب الشاي (استكانات) في صندوق خشبي كبير نحوي.

سلّم عليّ، ورددتُ عليه السلام، ثم سألته: "كيف يمكنني أن أقدم لك خدمة؟ هل تريد أن تشرب نرجيلة، أو كوباً من الشاي؟"

فأجاب: لا هذا ولا ذاك.

"إذاً ماذا تريد؟" قلتها بنبرة تشي بالدهشة.

فقال: "هل تريد أن تشتري مني هذه الاستكانات؟ أنت صاحب مقهى، وتقدم الشاي لزبائنك، أعتقدُ أنك بحاجة إلى كمية إضافية منها في زيارة الأربعين!".

"هل سرقتها؟

من أين لك هذه الاستكانات؟"

رشقتهُ بالأسئلة بعدما عرض عليّ ذلك بنبرة تشي بالغموض.

فأجاب بسرعة: "لا والله، لم أسرقها، لقد أحضرتها من مطبخ منزلي".

"وهل أنا بائع خردة؟"، قلتها بعدما صرح بأنها ملكه.

فقال وقد ارتسمت على وجهه قسمات الحيرة: "يا رجل، لا أظنّ أنك بائع خردة.. ولكني بحاجة إلى المال، وكنتُ عابراً من الطريق حينما شاهدتُ هذا المقهى؛ فخطرت على بالي فكرة عرضها عليك، وترك معاناة بيعها بسوق الخردة".

ساورني فضول معرفة أمر هذا الرجل، فأمرته بالجلوس على كرسي بجانبي، وقدمتُ له كوباً من الشاي، وأنا أنظر في عينيه مباشرة علني أجد شيئاً ما فيها.

"لماذا تريد بيع استكانات الشاي؟ فقيمتها ليست عالية لتفكر بفعل أمرٍ كبيرٍ بأموالها!"، سألته بعدما استعاد روعه.

فقال: "أنا إنسان بسيط، لا أملك إلا داراً تركها والدي ميراثاً لي، ولديَّ من الأسرة زوجة صالحة، واثنان من الأولاد الذكور، وطفلة صغيرة اسمها فاطمة.

عملي على باب الله.. أعمل في أيّ شيء لأكسب منه رزقي الحلال.

ومنذ فترة لم تتوفر لي فرصة عمل، فكنتُ أعيش على مبلغ المال الذي أدّخره طوالَ السنة من أجل استضافة زوار الأربعين في داري، وقد ذهب المبلغ جميعه الآن، والزيارة شارفت على الحلول، وشقَّ عليّ عدم فتح داري للزوار هذه السنة، فقررت بيع ما أستطيع بيعه من أمتعة وأدوات؛ لأوفر مبلغاً من المال، أشتري به طعاماً لهم فترة مكوثهم لديّ".

كان يسردُ لي قصته، ولم يتوقف إلا حينما انهمرت عيناه بالدموع، وهو يردد بصوتٍ شجن، "إني أحبّ الإمام الحسين عليه السلام، وأحبّ زواره، وسأفعل أيّ شيء لخدمتهم".

انحنيتُ له بتواضع وامتنان وقبلتُ يده، ثم قلت له: "سوف أعود، لا تترك مكانك".

تركتهُ خارج المقهى، ودخلت على الزبائن الموجودين في داخله، كان جسدي يرتعش من كلمات ذلك الرجل؛ ولكني تشجعت وقلت للحاضرين بصوت مرتفع: "من منكم يحبّ الإمام الحسين عليه السلام ؟".

صرخ الجميع من دون تردد في تلك اللحظة، "جميعنا فداء للإمام الحسين عليه السلام".

"إذاً سوف أطلب منكم أمراً، ولا تخذلوني، أو تقصروا فيه. إنّ هناك رجلاً يجلس بالخارج.."، سردتُ لهم حكايته بصورة سريعة مقتضبة.

وحينما انتهيت، ضجّ جميع أولئك الشباب بالدموع، وأفرغوا ما لديهم من أموال في جيوبهم فناولوني إياها، وكلّ واحد منهم يتمتم بعبارة وأنا أعبر بجانبه:

"ليسامحني الإمام الحسين عليه السلام فهذا كلّ ما أملك".

"خذ جميع مالي.. ولو أردت قلبي، فلن أبخل به في خدمة الإمام الحسين عليه السلام".

"أرجوك، قل للرجل الجالس خارجاً، ألا ينساني من الدعاء في خدمته للإمام الحسين عليه السلام".

جمعتُ المال منهم، وأضفت إليه ما كان موجوداً في صندوق المقهى أيضاً، ثم وضعته في كيسٍ صغيرٍ وخرجت.

"تفضل يا أخي، أتمنى أن يسدّ هذا المبلغ حاجتك، وسامحنا على شحّ ما بدر منا.. وأما استكانات الشاي التي معك فأرجعها إلى دارك، فنحن لسنا بحاجة إليها"، قلتها وأنا أتلمس دموعي من موقف أولئك الشباب الذي بدر منهم للتوّ. فلم أكن أعتقد بأنّ أولئك البطالين يحملون هذا العشق الولائي الصارخ في داخل قلوبهم الجافة، وفي أرواحهم التي أشعلوها من دخان المعصية.

لن أنسى كيف كان يبكي حينما أخذها وسار مبتعداً، وهو يقول: "الشكر لك يا ربّ، الشكر لك يا ربّ".

عدت إلى داخل المقهى لأقدم الشكر لأولئك الشباب، وصدمتُ من حالة الحزن التي خيمت عليهم هناك، فبكاؤهم ما زال مستمراً، وبصورة أعمق وأقسى مما كان سابقاً.

"ماذا بكم؟ اليوم نراجيلكم على حسابي"، قلتها من أجل أن أزيح غيمة الحزن التي طردَّت دخان النراجيل وحلت مكانه؛ ولكنهم لم يعيروا لكلماتي أيّ دليل، فقاموا واحداً تلو الآخر وغادروا المقهى بهدوء.

لم أرَهم منذ أن غادروا المقهى في ذلك اليوم إلا مرة واحدة، لقد كانوا يخدمون جميعهم في موكبٍ صغيرٍ، أسسوه بأنفسهم على طريق المشاية بين النجف وكربلاء، ولما رأوني رحبوا بيّ أيّما ترحيب، ثم أخذوا يسردون على مسامعي حكايات التوفيق التي حصلت لهم بعد ذلك اليوم.

منهم من تزوج، ومنهم من استطاع الحصول على فرصة عمل، ومنهم شخصٌ صار رجل دين محترم، وخطيباً بارعاً؛ لقد رأيتهُ واقفاً على فتحة باب موكبهم ينعى الإمام الحسين عليه السلام بصوتٍ مشجي عذب.

انظر كيف أثر موقفٌ حسيني واحد في مجموعة من البطالين، وحولهم إلى أشخاص صالحين تقطر من قلوبهم وأرواحهم قطرات العشق للإمام الحسين عليه السلام.

ليت يفهم البعض معاني القضية الحسينية، ويدع الشابّ الذي يشرب الخمر، والرجل الغارق في المعاصي والذنوب، والفاسق، والعاصي لوالديه، والفتاة المتبرجة، والمرأة السافحة يحضرون إلى مجالس الإمام الحسين عليه السلام؛ ليجدوا طريقاً للنور الذي سينتشل جثثهم من تلك المآسي، ويعيد إليهم قانون فطرتهم السوية.

أنا حقيقة أنتقدُ الذين يحتكرون مجالسهم على أنفسهم، ولا يتورعون في نظراتهم، أو عبارات ألسنتهم، أو حتى في تصرفاتهم حينما يرون أمثال أولئك الشباب والشابات في مجالس الإمام الحسين عليه السلام.

ألم يقل هو روحي فداه: «وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً؛ وإنما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله. أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام»[1]؟.

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤٤ ب٣٧/ ما جرى عليه بعد بيعة الناس ليزيد إلى شهادته.. ص٣٣٠ ح٢.

لقد خرج عليه السلام من أجل إصلاح الجميع، ومنهم أولئك الشباب والشابات".

"تشان غليون آغا؟"، قالها أحد الزوار العجم قبل أن يغادر مع جماعته المقهى، فقطع حكاية السيد علي، التي لم أرغب بأن تنتهي عند هذا الحدّ من السرد.

"ما شاء الله يا سيد علي، ليس ظاهراً عليك هذا الفكر الجيد في سرد الحكايات، وربطها بتناسق مفعم مع موضوع حسّاس في المجتمع"، قلتها بعد أن استلم حسابه من ذلك الشاب وهو ينظر إليّ.

"لقد قلتُ لك بأني متخرج من الجامعة، وهذه القضية التي تحدثتُ عنها للتوّ، لا تحتاج إلى عالمٍ من أجل أن يراها ويحللها في مجتمعنا اليوم"، قالها وهو ينتشي ما تبقى من نرجيلته، ثم صرخ: "أحضروا لي فحماً".

غادرتُ المقهى وأنا معجبٌ بهذا الشاب، وبما يحمله من رسالة قيّمة ثقبت نقطة في داخلي واستجنت فيه.

موكب في النجف الأشرف

الحياة في شوارع مدينة النجف لا يكاد يتوقف منها النبض في هذا الوقت من السنة، فما إن يعتلي صوتُ أذان صلاة الفجر حتى تدبّ الحركة فيها إلى منتصف الليل وأكثر، وكلّ إنسان لديه عمل خاص يقوم به في خلالها، وغالباً ما تكون أهدافه مسلطة إما في خدمة الزوار، أو في التكسب الاقتصادي من تواجدهم.

أما أهل المواكب، فيتدفق عملهم في مجرى أهداف أكثر خصوصية؛ لأنهم يعتقدون أنّ التوفيق في الخدمة الحسينية، هو أمرٌ لا

يناله إلا ذو حظ عظيم؛ ولذا ترى أماكنهم كالبحر الزاخر لا تهدأ أبداً من حركتها النشطة.

فمع أول إشراقة للشمس تمتزج أصوات أصحابها الداعية إلى تناول وجبة الفطور مع أصوات الأدعية والمآتم القديمة، التي تقرأ بصوت الملا عبد الرضا النجفي، وحمزة الصغير وغيرهما.

"تفضل ريوق يا زاير"، صوتٌ انطلق من حنجرةِ رجلٍ طاعنٍ في السن، له لحية خطها الشيب، فتح موكبه بعبارة: "يا فتاح يا عليم، تقبل منا هذا العمل القليل".

كنتُ جالساً في ذلك الصباح على الرصيف بالقرب منه، أشاهدُ طاولةَ موكبه التي أعدّ عليها أكواباً من الشاي الساخن، ووضع بجانِبها سلةً خضراء كبيرة، احتوت على قطعِ الخبز المحمص، وقليلٍ من الأبيض الطازج.

ولما شعرت بزلزلة صوته المرتفع في الأرجاء، تقدمت نحوه بهدوءٍ، وتناولت كوباً من الشاي الذي كان بخاره يتصاعد في ذلك الصباح البارد من شدة سخونته، وأخذتُ أيضاً قطعة من ذلك الخبز المحمص، ثم عدت إلى مكاني فوق ذلك الرصيف، لأتناولهما وأنا أرمقُ ذلك الشيخ الكبير بنظرةٍ ملؤها الحيرة.

VI

كان يصرخ بصوت عالٍ من عندِ طاولته "ريوق يا زاير، ريوق يا زاير، تفضل".

وكان الزوار يكتظون من حوله من مختلف الجنسيات والأعمار، وحينما لا يكتفي بعددهم ينزل إلى وسط الشارع ليستوقف السيارات المارة، وكلّ من يحاول العبور على قدميه من أمامه.

كان يدعوهم بحرقة ولهفة، ويقسم عليهم أحياناً بالأقسام المغلظة:

"عليك الله يا زاير، لا تحرمني أجر خدمتك".

"طلبتك بالعباس، تأخذ لك ريوق من الموكب".

"وداعتك عيني! بالحسين بس أشرب شاي".

بل يصل الأمر منه ـ أحياناً ـ إلى شدّ ذراع الزائر، وسحبه جبراً إلى موكبه إذا أبى تلبية طلبه.

هممت بالمغادرة بعدما اكتفيت من إحساس هذا الموقف الذي أظنّ أنه لن يتكرر كلّ يوم، وما إن بدأت أخطو مبتعداً حتى شاهدني ذلك الشيخ الكبير من بعيد، فجرى باتجاهي على نحوٍ مخيفٍ جدّاً.

شعرت بالرعبِ منهُ قليلاً؛ خصوصاً حينما شدّ على كتفي بقوة، وراح يهزّني وهو يصرخ في وجهي: "والله ما تروح إلا لين تشرب كوب شاي ثاني".

حاولتُ تمليص كتفي من قبضةِ يده؛ إلا أنهُ ما زال مصراً على موقفهِ، الذي زاد عليه بالأقسام أيضاً:

"حلفتك بالعباس تشرب بس كوب شاي".

"وداعتك، لا تكسر بخاطري، وتفشلني قدام الوادم".

كسرتني عفوية كلماته، ونبرة صوته، ففضّلتُ البقاء لأعرف المزيد عن سرّ هذا التفاني في خدمته، فقلت له وأنا أبتسم: "سوف أجلس؛ ولكن بشرط".

فقال: "أنا قابل بما تريده مني يا زاير".

"أريد أن أسألك عن هذا النشاط والتفاني في خدمتك للزوار، هل تخفي سرّاً ما؟"، سألته بعد أن قدم لي كوباً من الشاي بيده، ووضع شخصاً آخر من ذلك الموكب طبقاً من شوربة العدس الأحمر، وقرصين من الخبز الطازج بجانبي.

٧٣

جلس الشيخ بجانبي وقال: "هل لديك متسع من الوقت لسماع قصتي؟".

"قصة!"، قلتها متعجباً، ثم أضفت عليها مباشرة: "تفضل، تفضل، فليس لديّ شيء أقوم به الآن".

فقال بعدما طلب من صبيين الوقوف في مكانهِ لدعوةِ الزوار إلى طاولته: "أنا من سكان أهوار الناصرية، ولي أبناء عمومة يعيشون بمدينة النجف الأشرف، وقبل خمس سنوات أصبتُ بمرضٍ شديد جعلني طريحاً للفراش فترة طويلة؛ لدرجة أنني لم أستطع القيام أو القعود من دون مساعدة.

وكان الوقت قريباً من زيارة الأربعين في تلك السنة، حينما نزل ابن عمي "أبو حسنين" ضيفاً في منزلي. لقد قدم من مدينة النجف الأشرف، من أجل شراء بعض الأغنام والأبقار لموكبه؛ لِرخص قيمتها في منطقتنا.

فلما شاهد سوء حالي، قال لي بنبرة اعتقدتُ بأنها من أجل طمأنتي فقط: "يا أبا محمد! لا ترهق نفسك فدواؤك بالنجف الأشرف. تعالَ معي إلى الموكب هذه السنة، والتمس البركة من خدمتك للزوار.. فهناك العديد من الكرامات والأحداث تحصل خلال فترة الزيارة".

في بادئ الأمر استهجنت كلماته؛ خصوصاً أنّي لم أكن أعتقد اعتقاداً عميقاً بمثل هذه الأمور سابقاً، فقلت له: "لقد تعبت من زيارة الأطباء، وقدمت الكثير من المال لهم، ولم أجد منهم فائدة حتى الآن، وأنت تقول لي إنّ الخدمة بالموكب سوف تشفيني!".

فجأة قطع حديثنا صوت ابنه الصغير الذي أحضرهُ معه لخدمة الزوار، "بابا، العم أبو حسنين يسلّم عليك، ويقولك: إنّ بعض الزوار قد حلّو ضيوفاً في منزله بالأمس، فلا تنسَ حصتهم في وجبة الغذاء".

أجاب والده بسرعة: "سلّم على عمك، وقل له: أنت والزوار على رأسي، أنا خادم لكم، والغذاء سوف أُحضره بنفسي لداره اليوم".

انطلق الصغير مسرعاً وهو يحمل هذا الخبر إلى دار العم أبي حسنين، ثم عاد والده لإكمال قصته.

"ماذا كنت أقول؟ أين وصلنا في الحديث؟"، سألني وهو يتأمل أكياس الأرز التي كانت بجانبه، وكأنه قد بدأ من الآن في التخطيط لزيادة كمية وجبة الغذاء من أجل أولئك الزوار.

فأجبته، "لقد قلت: بأنك كنت مريضاً، وأنّ ابن عمك قد عرض عليك مرافقته إلى النجف الأشرف؛ للخدمة بالموكب".

"نعم، هذا ما حدث"، أجاب وكأنه يؤكد لي صحة كلماتهِ سابقاً، ثم أضاف: "في تلك الليلة بات ابنُ عمي في منزلي؛ فأخذتُ أستذكر كلامه في داخلي، وأنا أتأمل مصيري، وبعد مدة استنزفت فيها الأفكار المبعثرة طاقة تفكيري، حسمت قراري بنتيجة، هي: أني طريح الفراش منذ فترة، وقد صرفت العديد من المال على الأطباء، وجميع أعمالي شبه معطلة.. فغياب بضعة أيام لن يضر بشؤوني شيئاً.

ولما أصبح الصباح، في أثناء جلوسنا نتناول وجبة الإفطار، قلت لابن عمي: "لقد عزِمتُ على مرافقتك إلى النجف".

ما إن سمع هذا الخبر، حتى انطلَقت منه تنهيدة رقيقة، ولم يتمالك نفسه من شدة الفرح. وضع لقمة الطعام التي كانت بيده، وقام من حينها بتجهيز أمور ذهابي معه في سيارته، التي هيأ فيها جميع سبل الراحة الممكنة؛ حتى لا أشعر بالتعب في الطريق.

انطلقنا.. وحالي كانت تسوء كلّ ساعة من مشقة الطريق؛ لدرجة أنني لم أعد أقوى على الحراك أبداً.. صدقني، لا أعلم كيف وصلنا إلى النجف في ذلك اليوم!

٧٦

حملني ابن عمي في عربة صغيرة أول ما وصلنا إلى مرقد أمير المؤمنين عليه السلام لزيارته، وقرأ الزيارة على رأسي، وهو واقف خلفي، وأنا كنتُ شبه الغائب عن الوعي بسبب شدة سوء حالي.

ولما انتهى من ذلك، صلى ركعتي الزيارة، مرة له ومرة نيابة عني، ثم أخذني إلى هذا الموكب الذي نحن نجلس فيه الآن".

أشار الشيخ بيده إلى زاوية من زوايا ذلك الموكب وقال: "لقد طرحني ابن عمي هناك، عند أكياس البصل المكدسة بعضها فوق بعض؛ هل تراها؟".

فأجبته من دون تردد: "نعم.. أكمل قصتك، أرجوك".

"انتظر، انتظر"، ردد الشيخ ذلك مرات؛ وكأنه يستمتع بحالة الإنصات التي انصبت عليّ.

ارتشف رشفة من كوب الشاي الذي كان أمامه، ثم أكمل قصته وقال: "بعدما تركني ابن عمي ومن كان معه وهم يدعون لي بالشفاء؛ استغرقت في النوم العميق رغم ضجة الأصوات في داخل الموكب، وصخبها المتصاعد من الشارع الذي لم يهدأ أبداً.

وقبل صلاة الفجر بنصف ساعة تقريباً، جلست من نومي، وشاهدتُ صينية صغيرة أمامي، وضع فيها: عبوة ماء، وقليلاً من طعام العشاء بالأمس. شربت شيئاً قليلاً من الماء، ثم توضأت بالبقية وأنا جالس في مكاني.

كنتُ مستقبلاً القبلة، ممسكاً بمسبحتي أنتظر وقت دخول الصلاة؛ حينما دخل الموكب شابٌ داكن البشرة، لفّ رأسه بخرقة خضراء، وملامح الفقر والتعب كانت تبدو واضحة جداً عليه.

"السلام عليكم يا عم، أنا من الزوار.. أريد وجبة من الطعام؟"، قالها مباشرة من دون أيّ مقدمات بعد أن رفع الخرقة التي كانت على رأسه بهدوء.

أصابتني الحيرة كثيراً بعدما قال ذلك، مما جعلني أنظر مباشرة في عينيه العميقتين.

"ليس بمقدوري الحركة، ولا أعلم أين يحتفظ أهل الموكب بالطعام.. ماذا أقدم له من طعام يسدّ جوعه؟"، قلت لنفسي وأنا في حالة من القلق.

وفجأة تذكرت أمر الصينية المغطاة برغيف الخبز التي كانت موجودة بجانبي، مددت يدي إلى الصحن الذي كان فيها، وقدمته له مع قطعة الخبز؛ فأخذهم مني بسرعة، وبدأ يتناولهما بشراهة عالية.

وأنا أنظر إليه من فوق فراشي، أحسست بالفرح والدهشة في الوقت نفسه، فلم أتمالك نفسي من النظر إلى فمه الغامض الممتع مثل حديقة سرية، لم أتمالك نفسي حينما أحسست بأنّ هناك أمراً مريباً يخفيه هذا الشاب.

وما أن انتهى من تناول طعامه حتى اعتلى صوت الأذان مدوياً في الأرجاء؛ فطلب مني بنبرة خافتة السماح له بالوضوء والصلاة.

فقلت له: "أنا لست من أهل الموكب، ولا أعلم أين هي المغاسل، ولكن ابحث عنها بنفسك.. أظنّ أنها في الجانب الأيمن من هذه الدار".

ذهب وتوضأ وصلينا سوياً فرادى. وبعد أن انتهينا، لم نبرح في أماكننا مستقبلين القبلة وفي أيدينا المسابح نقلبها بالأذكار يميناً وشمالاً، فالتفت إليه وسألته: "من أين أنت يا ولدي؟".

أجاب بصوت مثقل حزين كأنه يريد أن يفضي إليّ بسرٍّ ما: "أنا يتيم من كربلاء، فتحت عيني في حضن جدتي التي توفيت بعدما

بلغت السادسة من العمر؛ فكفلني خالي الذي كان حادّ المزاج، عصبياً لأبعد الحدود، فالمعاملة السيئة منه لي كانت ترافقني دوماً مثل الظلّ.

هل تصدق بأنه أخرجني من المدرسة وأرغمني على العمل في دكانه ليلاً نهاراً؟ والآن لا أعرف القراءة أو الكتابة بسببه.

هل تصدق بأنه أجبرني على المبيت في الدكان حينما بلغت الخامسة عشرة من عمري؟ خوفاً على بناته اللاتي كبرن معي. لقد كنتُ أعتبرهنّ مثل الأخوات لي، ولم تراودني أية أفكار سيئة نحوهم.

ولما ضاق بي الحال معه بسبب ضربه المستمر، وعبوديته التي لم تخلُ من كلمات السبّ واللعن، هربت إلى بغداد، وعملت هناك في تنظيف السيارات، وفي غسيل الصحون بالفنادق.

كنت أعمل في أيّ شيء آخر أيضاً من أجل توفير لقمة العيش، والبحث عن مكانٍ مريح أنام فيه الليل. أتذكر أني عملت في كنيسة، مرة أنظفها وأرتب أمتعتها، لقد كان فيها قسّيس طيّب يعاملني بلطف، وأتذكر أني عملت حارساً في روضة للأطفال، وعملت في جمع قطع الحديد من الشارع.

ولما بلغتُ الخامسة والعشرين من العمر عدتُ إلى كربلاء، وبدأتُ بالعمل على عربة خشبية هناك. أستأجرها يومياً من الكراج بمبلغ

خمسة آلاف دينار، أطلب عليها الرزق بالنهار، وأريح جسدي فوق سطحها بالليل.

كنتُ أحمل عليها كلّ شيء يخولني لكسب المال: أمتعة، زوار، حجارة، أيّ شيءٍ يأتي في بالك ثق تماماً بأني قد حملته عليها طيلة تلك السنوات.

ولكن، الحمد لله أشعر بسعادة كبيرة في العمل مع عربتي، خصوصاً حينما أحمل عليها الزوار؛ فإنّ متعة حملهم والاستماع إلى حديثهم وهم فوق عربتي أمر بتُّ أعجب به منذ فترة طويلة؛ لدرجة أني أحياناً أبحث عنهم وأحملهم مجاناً في مناسبات الزيارات. فما كانوا يتلفظون به من كلمات الشكر والدعاء لي، يجعلني في أوقات أدفع أجرة عربتي لصاحب الكراج من جملة مدخراتي؛ لعلّ اليتم هو من حرمني هذا الشعور فوجدته على ألسنة الزوار الذي أحملهم، ولعلّ تعلق قلبي بقبة الإمام الحسين عليه السلام المضيئة ليلاً التي أنام وأنا أشاهدها من فوق سطح عربتي وهي مركونة بطرف الشارع هو السبب.

على أيّ حال، أنا الآن سعيد ومقتنع بقضاء الله وقدره، ولا توجد لديّ أمنيات كثيرة في هذه الحياة؛ سوى أمنية كانت في بالي منذ أن

عملت حمالاً على العربة، وهي: من كثرة ما يحدثني الزوار عن شعور زيارة الإمام الحسين عليه السلام مشياً، انغرست بذرة هذه الأمنية في قلبي حتى اشتدت جذورها، فتمنيتُ عيش هذه الحالة والإحساس بشعورهم؛ من أجل أن أحدثهم أنا أيضاً حينما أحملهم على سطح عربتي مستقبلاً؛ فقررت هذه السنة تحقيقها بتصميم جازم.

فأرجعت عربتي إلى صاحب الكراج بعد أن دفعتُ له جميع أجرتها المتخلفة عليّ، ثم أوصلني أحد الأشخاص مجاناً إلى النجف".

"هذه كانت قصة هذا الشاب"، توقف الشيخ مرة ثانية عند هذه الجملة لكي يرتشف رشفة من كوب الشاي الذي برد وهو يسرد حكايته.

"ماذا حدث بعد ذلك؟"، قلتها له وأنا في نشوة الوصول إلى نهايتها التي ابتدأت بمرضه، فإحساسي من النظر إلى إيماءته ونبرة صوته جعلاني أتيقن بأنّ هناك أحداثاً مشوقة أخرى بانتظاري.

حقيقة، كان وجودي يشتعل في كلّ ذرة فيه مثل الحطب الجاف في تلك اللحظة.

كم أكره حكايات كبار السنّ حينما تكون بطيئة السرد، ومملوءة بالعديد من الوقفات. فأسلوبه هذا يذكرني كثيراً بجدي حينما يسرد لنا تلك القصص التي سمعناها ألف مرة منه تقريباً.

وحينما طفا هذا الخيال من داخلي إلى سطح لساني، أخرجته بنبرة متوترة: "يوترني كثيراً الاستماع إلى قصص الشيبة؛ لأنكم دائماً ما تتوقفون وقفات طويلة، وتجعلون من يستمع لكم كالقارب الهائم في وسط بحر مظلم لا يعرف أين يأخذه موجه".

كان يصرخ في حين ذلك لأحدهم: "فقار أعطني كوباً آخر من الشاي؟ فقار، ألا تسمعني؟".

دخل علينا شابٌّ عريض الكتفين في الثلاثينيات من العمر، وهو يحمل كوباً من الشاي قد ضاع في حجم يده الضخمة.

"هل تعلم من هو هذا الشاب؟"، وجه الشيخ هذا السؤال لي وهو يومئ بيده نحوه.

أرجعتُ بصري عليه مرة أخرى من أجل أن أتمعّنه جيداً، ثم أشحته وأنا أجيب بنبرة مستهجنة: "هل تراني إماماً أعلم أنساب الناس وأحسابهم؟ وما لي ومعرفة من يكون هذا الشاب؟ أرجوك أكمل قصتك يا شيخ".

تبسم ثم قال: "هذا الشاب هو صاحب العربة الذي قابلته في تلك الليلة، وفي هذا الموكب بالذات!".

تملكتني الدهشة، واختفت نبرة الاستهجان التي أطلقتها للتوّ، "ماذا تقول؟، كيف؟ ماذا حدث في قصتك؟! أكملها بسرعة ولا تحاول التوقف، فأعصابي لم تعد تحتمل أكثر مع أسلوب سردك"، قلتها وأنا أهتزّ في مكاني بدهشة شديدة، وكأني قشة ضعيفة أخذت تلعب بها رياح الشمال.

تبسم الشيخ بعد أن أخذ كوب الشاي من يدِ فقار، وقال: "صبراً، صبراً".

ارتشف رشفة من كوبه وعاد مرة أخرى لإكمالها: "كسرتني حكاية فقار في ذلك اليوم، وقبل أن يغادر من باب هذا الموكب قلت له: يا ولدي، أنا من الأهوار وعندي تجارة هناك، إذا أردت العمل معي فسوف أعتبرك ابني وأكرمك. فكر ملياً في الأمر، وإذا قررت ذلك تعال إليَّ هناك.. تفضل هذا هو عنواني.

شكرني بعد أن لفّ خرقته على رأسه قبل أن يغادر بهدوء.

قضيتُ أول يوم لي في هذا الموكب جالساً على فراشي، مستنداً إلى الجدار أراقب الجميع في خدمتهم. وفي اليوم الثاني طلبتُ منهم

الاقتراب مني لمساعدتهم في تقطيع الطماطم والبصـــل، وفي كـــلّ عمـــل أستطيـــع القيـــام به وأنا جـالس على فراشي.

كانت تسري في داخلي حرارة عجيبة أثناء العمل معهم؛ بل كنت أنسى في أوقاتٍ كثيرة أمر مرضي، ومع كلّ كلمة أتلقاه من الزوار الذين يدعون لي، كانت روحي ترتفع وتحلق إلى عالم له آفاق عجيبة، تُخرس وتبكم عن الوصف، حتى اندمجتُ فيه، وغدوت جزءاً منه مع مرور الوقت.

استمر الحال هكذا إلى أن تماثلت بالشفاء تماماً بعد أسابيع قليلة من عودتي إلى أهلي.. ولم أصب بمرض منذ ذلك اليوم.

وبعد شهر من شفائي، أتذكر أنّ الوقت كان ظهراً، سمعتُ طرقات خفيفة على بابي، وما إن فتحته حتى دُهِشْتُ من الطارق!

كان فقار واقفاً على عتبة بابي، وهو يحمل كيساً صغيراً احتوى القليل من الملابس والأغراض الخفيفة، لم أتمالك نفسي حينما رأيته، فوقعتُ عليه أحضنه وألثمه بقبلاتي العميقة. لقد عزِمَ على العمل عندي، وأنا منذ تلك اللحظة اعتبره أحد أبنائي الأربعة.

بعد هذه الأحداث التي جرت في هذا الموكب، قررتُ إحياءه بالخدمة في كلّ سنة بنفسي، فصرتُ أجمع المال الخاص له من ربح

تجارتي طيلة السنة، وأنتظر قدوم زيارة الأربعين بحرارة حتى أخدم الزوار فيها".

ختم الشيخ حكايته وهو ممسك بيد فقار الذي كان يجلس بجانبه، وكأنّ هناك روحاً منسجمة برباط وثيق بينهم، لا تعلم أيّ نوع من المشاعر تجمعها.

"قصة مشجية ومؤثرة"، قلتها وأنا أمسح دموعي التي تلاعبت بها مشاعر حكايته كالموج العارم.

"فقار، أريدك أن تزيد من وجبة الغذاء اليوم، لدى العم أبو حسنين زوار في منزله"، قاله الشيخ بنبرة توحي بالأبوة.

فأجابه فقار وهو يستعدّ للقيام: "خادم إلك مولاي العزيز".

أحسستُ بأنّ وقت مغادرتي قـد حان، ولما هممت بالوقوف أكدّ عليَّ الحضور أيضاً لتناول وجبة الغذاء في موكبه، ووعدته بأني سأفعل ذلك إن أتيحت لي الفرصة.

ثم أوصلني بنفسه إلى الباب، وهو مصرٌّ على أخذ كوب شاي ثالث معي أشربه في الطريق، فقلتُ له من باب الدعابة: "إن كان هناك

قصة أخرى فسوف أقبله، وإن لم يكن فلا أريده"، تبسم الشيخ وودعني بحضن عميق قبل تحركي من عند باب موكبه.

ما زلتُ أعيش حالة الصدمة من الحكاية التي اندست في هذا الموكب وأنا في طريق مغادرتي له، وحتى في أثناء كتابتي لها أيضاً.

وللأسف لم أوفق لتناول أيّ وجبة أخرى من ذلك الموكب؛ لظروف خاصة أصابتني في ذلك اليوم.

اليوم الأول في طريق المشاية

حلّ البرد فجأة بين ليلة وضحاها من دون سابق إنذار، فالسماء الصافية في هذا الصباح حَجَبَتْهَا الغُيُوم، وحملت الأجواء معها هبات برد قارصة تَشْعرُ بِبُرودَتِها وهي تَخْترق ملابِسك لتصل إلى عظامك فَتَبعث فيها معنى الشتاء.

"لقد حلّ بردُ العراق"، هذا ما تلفظ به حارس مقرّ السكن وهو وَاقِف خارجاً ينتشي سيجارته بإحساس عميق حينما رآني، ثم أضاف وهو ينظر إلى ملابسي التي أرتديها بعينٍ تهكمية، "لقد انتهى فصل الخريف منذ مدة في العراق، وتأخر علينا فصل الشتاء في هذه السنة. فالمعتاد في طقس أجواء زيارة الأربعين البرودة الشديدة".

"إذاً سوف أعود لغرفتي لأخذ بعض الملابس الثقيلة معي"، قلتها وأنا أدير ظهري عائداً.

عدتُ أدراجي لغرفتي لاستبدال ما في حقيبتي التي احتوت على: نوعينِ من اللباس الخفيف، ومعجونٍ وفرشاةِ أسنان، وحقيبة صغيرة للأدوية، وجهازي المحمول مع جهازٍ صغير أوثق فيهما ما يجري مباشرة.

بعدها انطلقتُ مع الحشود التي بدَت كالأسراب وهي تسير في جماعات يتقدمها شخص يحمل راية كبيرة؛ اختلف لونها والعبارة المكتوبة عليها من جماعة إلى أخرى، وكانت أعمدتها أشبه برماحٍ طويلة التفّت وَتَداخَلت ألوان أقمِشَتُها بتناسق مُنْتظم، فجرى منظرها وهي مرفرفة كأروع ما يكون، وأنظارُ جميع من يسيرون كانت متجهة إليها، وأسماعهم مستغرقة الإنصات إلى القارئ الذي أخذ ينعى أبيات

الشجاء تارة، ويقرأ جملة من المصائب تارة أخرى. والكلّ كان يحمل حقيبته الصغيرة التي احتوت الضروريات من أمتعته فوق ظهره، والبعض وضع علماً صغيراً فوقها يرفرف مع نسمات الرياح طول الطريق، لا يكاد يهدأ إلا حينما يتوقف صاحبه.

حشودٌ أخرى، كانت تُردد بعض عبارات القصائد الجماعية وهي تسيرُ خارجةً من النجف: "مشاية إلك يا حسين"، "جينا إلك زوار"، "يا حسين بضمايرنا صحنا بيك آمنا".

هذا كله يحدثُ مع الحشودُ العربية، أما غير العربية فلا يقلّ وصفُها عن ذلك تقريباً، فعلى الرغم من تفاوت لغاتهم وأعمارهم؛ إلا أنّ الجميع أصبحوا متشابهين في غاية الحب التي شدّوا رِحَالهم إليها.

وحقيقة، هنيئاً لهم ذلك، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «من أتى قبر الحسين ماشياً كتب الله له بكلّ خطوة وبكلّ قدم يرفعها ويضعها عتق رقبة من ولد إسماعيل»[1].

وبما أنيّ أول مرة أسيرُ مع المشاية قاصداً كربلاء من مدينة النجف، لم أكن أعلمُ أين هو طريق الخروج الذي يضع أقدامي على المسار

(١) وسائل الشيعة ـ الحر العاملي: ج١٤ أبواب المزار ب٤١/ استحباب المشي إلى زيارة الحسين عليه السلام ص٤٤١ ح٦.

بينهما، فأخذتُ أسير مع الحشود من غير جادة، ولا إثم عليَّ ولا عار، ما دمتُ وحيداً في هذه الرحلة.

بعد فترة قصيرة أحسستُ بالضياع، فأجبرتُ نفسي على التوقف لتناول وجبة الإفطار من ذلك الموكب الصغير الذي تنصب في طرف الشارع، وأحاطته النخيل من جوانبه الثلاث.

"السلام عليكم شيخنا"، قالها شابٌّ يحملُ حقيبته الصغيرة على ظهره.

كان ضامراً، نحيفاً، يصعب تحديد عمره، وتتدلى فوق وجهه خيوط الوشاح الأخضر الذي لفّه على رأسه.

"وعليكم السلام ورحمة الله.. من أنت؟"، قلتها ليكشف عن وجههِ جيداً حتى أتعرَّف عليه.

رفع وشاحه برفق، ثم قال: "أنا السيد مسلم، ابن عم السيد علي صاحب المقهى، لقد كنت أستمع لحواركما من بعيدٍ في ذلك اليوم عن المواكب في النجف، وخدمة الزوار.. وأنت ماذا تفعل هنا؟"

"أريد الوصول إلى طريق المشاية، ولا أعلم هل مسيري حتى الآن يؤدي إلى ذلك أم لا؟!"، أجبته.

"نعم، إنّ طريقك صحيح"، أجاب مباشرة بعد أن هزّ رأسه بصمت وهو ينظر إليّ بعينيه الثاقبتين.

فقلتُ له بعد أن تناولنا وجبة الإفطار سوياً وشرعنا بالمسير: "هل تريد الذهاب إلى كربلاء سيدنا؟".

"أتمنى ذلك، ولكني متعهدٌ بالخدمة في أحد مواكب النجف الواقعة على طريق المشاية"، قالها وهو ينظر أمامه بتمعُّن وكأنه يستحضر قُبةَ الإمام الحسين عليه السلام الواقعة في نهاية الطريق.

"متعهدٌ بالخدمة. كيف؟ لم أفهم مقصدك يا سيد".

فقال بنبرةٍ تشبّعت بالاعتزازِ والفخر: "أمي سيدة علوية وخادمة لأهل البيت عليهم السلام ولديها اعتقادٌ كبير بأسلاف ذريتها. بعد زواجها من أبي لم تنجب طفلاً لسنوات، فنذرت أول طفلٍ خادماً لزوارهم عليهم السلام، وبعد أن منّ الله عليها بيّ وحقق مرادها، ربتني على الخدمة الحسينية مُنذ الصغر.

أتذكرُ كيف كانت تأخذني معها إلى مواكب النجف النسويّة، فتعملُ في تقطيع البصل والطماطم، وتساعدُ في تلبية طلبات الزوار، وأنا كنتُ أساعدها في ذلك أيضاً.. ولما كبرت بدأتُ الخدمة وحدي في

أوقات الزيارات. والآن أنا متجه إلى أحد المواكب النجفية الموجودة على الطريق.

"وفقك الله يا سيد، قصة جميلة"، قلتها بعد أن أخذ التعب يدبُّ في جسدي، فأنا لستُ معتاداً على مشي المسافات الطويلة.

استأذنتُ منه، وقلت له مازحاً: "سيدنا! أنا إنسان كهل أحتاج إلى الراحة، بإمكانك إكمال طريقك وتركي هنا".

تعالت ضحكاته بطريقة وديّة، ثم ودعني بحرارة وهو يقول: "عليك أن تجرب الخدمة في الموكب الذي سأقصده، مكانه يقع عند العمود ١١٠".

توجهتُ بعد ذلك إلى أقربِ موكبٍ كان بجانبي، وقبل أن أهمَّ بالدخول إليه، فاجأني خروفٌ صغير بني اللون، عبر من يميني بجرأة لافتة للنظر، وهو يشقّ صفوف المارة من دون خوف من أحد وكأنه يعرف مقصده، وخلفه تسير امرأة أربعينية، تحاول التنفس بصعوبة وهي تمسك بذلك الحبل الأسود الذي تمّ ربطهُ في عنقهِ.

أخذني فضول معرفة أمرِهُما، فتقدمتُ نحوها بحذر شديد وقلت: "السلام عليكم يا زائرة".

"وعليكم السلام"، قالتها وهي تحاول تعديل أطراف عباءتها التي تهاوت من شدة سرعة ذلك الخروف.

"إلى أين تأخذين هذا الخروف الصغير؟"، سألتها.

شدّت الحبل ليبطئ من حركته، ثم قالت: "إلى كربلاء". لبثت صامتة للحظة، وأضافت بعدها: "عندي ابنه لم تنجب بعد زواجها الذي استمرّ ستّ سنوات، وفي العام السابق في هذا الطريق حينما كنت متجهة مع المشاية إلى كربلاء، نذرت في أثناء ذلك إن استجاب الله ﷻ دعائي ببركة مصاب الإمام الحسين عليه السلام سوف آخذ نذري مشياً إلى كربلاء. والحمدُ لله لقد تحقق نذري، وأنجبَت ابنتي طفلاً كفلقة القمر، وها أنا أفي بنذري اليوم".

"شكراً لك"، قلتها وأنا أحاول الابتعاد عنها برفق بعدما تحلق عدد من المارة حـــولنا لاكتشـــاف أمر ذلك الخروف الصغير كما أظنّ.

بعد ذلك توجهتُ مباشرة إلى أقرب موكب وقع عليه نظري، فالإنهاك قد أخذ يشعرني بثقل الحقيبة التي كنت أحملها على ظهري.

كان الموكبُ جميلاً جداً، فالأشجار المتنوعة والأزهار الملونة ملأت باحته الخلفية، والجلسة الشعبية التي صُنِعت من القصب قد

تقدمت وجههُ المطلّ على الشارع. وبينما كنت أجيل النظر إلى ملامح الطبيعة الخلابة فيه، بمراقبة حركة الأغصان مع الريح التي تداعبها، وأصوات العصافير التي ملأت أشجاره، قَدّم لي رجلٌ ذو وجه تلمستُ من ملامحه سيماء الصالحين وجبة من الطعام.

كان هادئ الطبع، متزن التعامل، تتسمّر في مكانك حينما ينظر إليك بعينيه الغائرتين. لم يرفع فضولي عينه عن ذلك الرجل طيلة مكوثي هناك، كنت أتمنى أن أتحدث معه عن أمر الخدمة في هذا الموكب؛ ولكن فكرة التعرض إلى موقفٍ محرج أنا بغنى عنها في حالة التعب التي كنت أشعر بها، مما جعلتني أنحّي هذه الأمنية جانباً، فاستندت على أمتعتي؛ لأنال قسطاً من الراحة، وغطت عيني في نومٍ عميق.

استيقظت مذعوراً على صوتِ امرأة تصرخ بفزع، لم أكن أعلم ماذا كانت تقول؟ فإدراكي ما زال ناعساً لم ينتعش بعد.

كنتُ أعتقد بأني ما زلتُ نائماً، وأنّ هذا مجرد حلم يراودني، فالأحلام المزعجة تكاد تكون كالظلّ لي أثناء السفر.. عادة لا أعرف كيف أتخلص منها.

ولكني بعد أن استجمعتُ طاقتي، وأدركتُ الواقع الملموس أمامي، تقدمت إلى المكان الذي تجمهَر فيه جميع من كان في ذلك الموكب؛ لأرى ما يحدث هناك.

كان المكانُ مكتظاً، والكلّ مشغولاً بالبكاء واللطم والنحيب، وتلك المرأة كانت واقفة في وسطهم تحاول سرد حكاية لها.

"ما الأمر؟"، سألتُ أحد الواقفين.

فأجاب: "لا أعلم؛ ولكني أعتقد بأنّ كرامة حصلت لها في هذا الموكب، وجاءت اليوم من أجل أن تفي بنذرها".

لذُت بالصمت واقفاً لا أفعل شيئاً سوى النظر إلى الجميع في محاولةٍ للخروج بقضية هذا التجمُهر، وبعدما انتهت تلك المرأة من سردها، وحاول الجميع العودة إلى أماكنهم؛ قابلني صدفة ذلك الرجل الذي قدم لي وجبة الطعام، فخطر في بالي بأنها اللحظة المناسبة لأرى ماذا يختبئ في خلجات هذا الرجل؟

"السلام عليكم، ما أمر هذه المرأة؟".

"وعليكم السلام، هل تريد أن تشرب الشاي معي؟"، ردّ على سؤالي بسؤال آخر وهو يشير إلى طاولة بأصبعه.

فقلت له: "لا بأس، أودّ ذلك".

جلسنا على طاولة صغيرة تحت شجرة عملاقة تكاد أغصانها تلامس سحب السماء من طولها، ثم أحضر لنا طفلٌ صغير كوبين من الشاي الساخن.

كان الرجل يدير مسبحته الترابية في يده قبل أن يجيب عن سؤالي بقوله: "العام الماضي، جاءت هذه المرأة لترتاح في موكبنا. وحينما قدمت لها صحن وجبة الغذاء، رَمَقت ما فِيهِ بنظرةِ ازدراء، ثم رَمتْهُ على وَجْهِ الأرض، وانهالت عليَّ بالعبارات السيّئة:

"لماذا الصَّحْنَ قَذِر؟

ولماذا اللحم الذي فيه قليل؟

أيّ خدمة تقدمونها للزوار؟

فإن لم يكن لديكم مال كافٍ، فلا تُنْصِبُوا أَنفْسكُم في هذا المكان".

لم أفعل لها أيّ شيء، على الرغم من أني أُصِبت بالخجل من نظرات الجميع في تلك اللحظة، وجلّ ما فعلته معها هو الاعتذار، وتقديم وجبة أخرى لها من الموكب الذي كان بجانبنا.

واليوم، عادت هذه المرأة تعتذر إليّ بعد سنة كاملة!

لقد تأثرتُ من سماع حكايتها التي قالت فيها: "في ليلة اليوم الذي وبختني فيه أمام الجميع رأت رؤية، كأنها جالسة في داخل حسينية، وكان هناك سيدة جليلة توزع البركة على جميع الحضور، فلما اقتربت منها شاحت هذه السيدة الجليلة بصرها عنها، ولم تقدم لها شيئاً من تلك البركة.

فسألت هذه المرأة فتاةً شابةً كانت تجلسُ بجانبها: "من هذه المرأة التي شاحت بصرها عني؟ ولم تقدم لي البركة؟"

أجابتها الفتاة بهمس: "ألا تعرفينها؟ إنها صاحبة الموكب والمعزّاة فيه، هذه السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام".

حينما علمت بأنها السيدة الزهراء عليها السلام قامت تركض صوبها مسرعة، ولما وصلت إليها قالت: "سيدتي، لماذا أشحتِ وجهكِ عني ولم تعطني بركة كالجميع؟".

فأجابتها أمنّا الزهراء عليها السلام: "أنتِ لا تستحقينها! لقد أَغضبْتني اليوم حينما رميتِ بركة ابنْي على الأرض، وتعليتِ بكلماتك على خادمه".

انتبهت من الحلم مذعورة لا تعلم ماذا تفعل؟

تريد العودة إلى هذا الموكب من أجل الاعتذار؛ ولكن الطريق بعيد، والمواكب أخذت تغلقُ أبوابها؛ لأنه لم يبقَ إلا يومٌ واحدٌ على ذكرى زيارة الأربعين، فظلَّت تنتظر سنة كاملة لتعود وتعتذر عما بدر منها من سوء.

ولما عادت اليوم إلى موكبنا، وسردت حكايتها أمام الجميع، قُلتُ لها: "أنا أيضاً رأيتُ رؤيا في تلك الليلة، لقد رأيتُ نفسي أخدم في موكبٍ غير هذا الموكب. كان موكباً فيه أعمدة من نور ترتفع نحو السماء، وفيه دُور يتهجّد أهلُها تارة، ويتلون القرآن بأصوات مشجية تارة أخرى، ودُور يُذكر فيها المصاب، وتسْتقطِب الملائكة ما يتقاطر ويفيض من دموع البكّائين فيها، وكان هناك سيدة جليلة، محدودبة الظهر، مغطاة برداء أسود طويل، تقف عند باب الموكب.

كنتُ أدور بالطعام عليهم واحداً تلوَ الآخر، وحينما وصلت إلى تلك السيدة الجليلة طأطأتُ برأسي إلى الأرض من دون شعور، ثم قالت لي: "ارفع رأسك ولا تحزن فأنت خادم ابني، وحقك محفوظ عندي".

انتبهتُ من نومي والسرور قد عمّ ملامحي، وأدركتُ مدى عِظَم عملي كخادم عند الإمام الحسين عليه السلام".

على أيّ حال، لقد سامحت هذه المرأة اليوم، بل سامحتها منذ ذلك اليوم. كيف لا أسامحها وقد كانت سبباً في رؤيتي للسيدة الزهراء عليها السلام فكلي يقينٌ بأنّ تلك السيدة الجليلة التي كانت تقف عند باب الموكب هي سيدتي ومولاتي الزهراء عليها السلام".

تأثرتُ من سماع ذلك، فالدموع لم تتوقف أثناء سردِهِ لي حكاية تلك المرأة، ثم قلت له بهدوء بعد أن توقف عن حديثه تماماً وأخذ يطرق ببصره نحو السماء: "روي أنّ فضيلاً أقام مأتماً للحسين عليه السلام، ولم يخبر به إمامنا الصادق عليه السلام، فلما كان اليوم الثاني أقبل إلى الإمام، روحي فداه، فقال له: «يا فضيل، أين كنت البارحة؟

قال: سيدي، شغل عاقني.

فقال: يا فضيل، لا تُخفِ عليَّ، أما صنعت مأتماً، وأقمت بدارك عزاءً في مصاب جدي الحسين عليه السلام؟

فقال: بلى، سيدي!

فقال عليه السلام: وأنا كنتُ حاضراً.

قال: سيدي، ما رأيتك، أين كنت جالساً؟

فقال عليه السلام: لما أردّتَ الخروج من البيت أما عثرت بثوب أبيض؟

قال: بلى سيدي.

قال عليه السلام: أنا كنت جالساً هناك.

فقال له: سيدي، لِمَ جلست بباب البيت ولم لا تصدَّرت في المجلس؟

فقال الصادق عليه السلام: كانت جدتي فاطمة عليها السلام بصدر المجلس جالسة، لذا ما تصدَّرت إجلالاً لها»[1].

إنّ السيدة الزهراء عليها السلام تحضر في مجالس المصاب، وهذا مما لا شك فيه، استناداً إلى الروايات التي بين أيدينا، وإلى القرائن التي تتحدث عن ذلك؛ كالكرامات والتشريفات لها عليها السلام في مجالسِ المصاب.

دعني أثقل عليك الحديث بنقل هذه القصة التي سمعتها من أستاذي الجليل الشيخ جعفر رفعتي. يقول: "كان هناك خطيب حسيني مشهور في منطقته، وفي يوم من الأيام بعد أن انتهى من قراءة جميع مآتمه، كان متعباً في طريقه إلى منزله لدرجة أنه لا يستطيع ردّ

(١) ثمرات الأعواد ـ السيد علي الهاشمي: ص٣١ـ٣٢.

السلام على من كان يقابله في الطريق، مرّ على منزل امرأة عجوز تكنس فتحة بابها بمكنسة قش شبه بالِية.

سلمت عليه، فرد عليها السلام بصوت يشبه الهمس وهو مطأطئ رأسه للأسفل، ثم قالت له: «يا ولدي، هل أنت خطيب؟". لم تكن تعرفه المسكينة رغم شهرته بالمنطقة.

توقف وقال لها بحياء شديد: "نعم".

فقالت له: "هل بإمكانك أن تقرأ المصاب غداً في داري".

فقال لها وهو متردد قليلاً: "لا بأس".

يقول هذا الخطيب: مرّ اليوم الثاني كالمعتاد، فبعد أن انتهيتُ من مجالس القراءة الحسينية عدتُ مباشرة إلى منزلي، واستلقيت على فراشي لكي أرتاح قليلاً من الجهد الذي صرفته في ذلك اليوم.

وبينما كنتُ أتذكر سرد الأحداث والأبيات التي قرأتها، وأتمعن في أيٍّ منها كانت مشجيّة أكثر للحضور من غيرها، وأيٍّ منها نسيته بسبب سوء الحفظ عندي؛ تذكرتُ الوعد الذي أبرمتهُ لتلك المرأة العجوز بالأمس.

أصابني الثقل وسَوّلت لي نفسي بنكث العهد معها؛ إلا أنه لم يحدث أن تركتُ دعوةً لمصاب الإمام الحسين عليه السلام من قبل، فقلتُ في نفسي: "دعني أذهب وأقرأ في منزلها ولو نصف الوقت المعتاد الذي أقرأه ثم أعود".

ذهبتُ إلى منزلها وأنا قلق من تأخري؛ إلا أنها لم تسألني عن ذلك بتاتاً حينما رأتني مقبلاً عليها، بل كانت جالسة عند فتحة بابها تنتظرني.

وما إن رأتني رحبت بيّ أشد ترحيب، ثم أدخلتني إلى منزلها وهي في أشدّ السرور.

كان منزلها صغيراً جداً، بإمكانك معرفة مدى الزمن الذي مرّ عليه من خلال الرائحة التي تفوح من جدرانه، ومن خلال سقفه الذي تساقطت أجزاء عديدة منه.

أجلستني على منبرٍ صغير صُنِع من الأخشاب القديمة، ووضَعَت عليه قطعة قماش أخضر، وأحاطتهُ ببعض الأقمشة المطرز التي صنعتها بيدها كما أعتقد، فنساء منطقتنا مشهورات في صناعة الأقمشة المطرزة، ثم قالت لي بعد أن جلَست بعيداً عند فتحة باب تلك الغرفة: "تفضل ابدأ قراءة المصاب متى شئت".

١٠٣

"ألن يأتي أحدٌ للاستماع إلى المصاب؟ لا يوجد إلا أنا وأنتِ أيتها المرأة؟"، قُلتها وعلامات الحيرة بدأت ترتسم على ملامحي من هذا الموقف.

فقالت: "يا ولدي، المكان مكتظ بالحضور، ألا تراني أجلس عند فتحت باب الغرفة".

تعاملتُ معها على نِيّتها، وشرعتُ بالقراءة بعد الإلحاح الذي حصل منها.

وفي أثناء القراءة كنتُ أسمع صوت امرأة تصرخ، "آه ولدي قتلوك، آه ولدي لم يسقوك قطرة ماء"، كنت متأكداً بأنه ليس صوت تلك المرأة العجوز؛ فأشجان صوتِها الغريب كسر قلبي أيّما انكسار، وجعلني أستمر في القراءة لفترة أطول مما كنت أفعل.

توقفتُ حينما تضاءل ذلك الصوت واختفى عن مسامعي، ولـمّا نزلتُ من على المنبر سألتُ تلك العجوز باستحياء: "هل يوجد هناك امرأة أخرى معك في المنزل؟ هل سمعتِ كيف كانت تبكي بصوتٍ شَجِن؟".

لم تجب عن سؤالي، وكلّ ما فعلته هو تقديم قطع من الحلوى مع أجرتي التي لفّتها في ورقةِ منديل خشن.

١٠٤

خرجتُ من منزل تلك العجوز وأنا أشعرُ أنّ ثَمّة أُنساً مبثوثاً في داخلي بخفاء، لم أشعر به من قبل على الرغم من كثرة قراءتي.

في اليوم الثاني حينما صعدتُ المنْبَر في الأماكن المعتادة، تغيّرت قراءتي للمصابِ كثيراً، كان صوتي يُسِيِّل دموع الحضور بأقلّ تكلفة مما كنتُ أفعل سابقاً، حتى إنّ أغلب الحضور سألوني بعدما انتهيت: "ماذا فعلت في قرأتك بين ليلة وضحاها؟".

أنا أيضاً كنتُ متفاجئاً من ذلك؛ ولكني علمتُ بأنّ سرّ هذا التقدم هو مجلس تلك المرأة العجوز التي قرأتُ لها بالأمس.

انتهيتُ من مجالس المصاب التي أُقدمها بسرعة، وتوجهتُ إلى منزل تلك العجوز كالهائم أبحثُ عن إجابةٍ لما يحدث معي.

طرقتُ الباب بشدة لتفتحه؛ ولكن دون جدوى. حاولت مرات ومرات حتى شعرتُ باليأس وجلستُ على الباب أنتظر خروجها؛ فلن أبرح من مكاني حتى أستعلم منها عما جرى بالأمس.

وبعد دقائق قليلة أقبلت ماشية من طرف الشارع، لقد كانت المسكينة خارج منزلها، وكنتُ أعتقد بأنها في داخله ولا تريد مقابلتي.

سلّمَت عليّ، ثم قالت: "ما بك يا شيخ؟ هل نسيت شيئاً بالداخل مُنذ الأمس؟"

أجبتها: "نعم، لقد نسيتُ روحي بالأمس في منزلك. أرجوك، أصدقيني القول، صوتُ مَن كان في المجلس بالأمس؟ وما هو سرّك؟".

تنهدت العجوز تنهيدة حزينة ثم قالت: "اسمع يا ولدي، أنا امرأة فقيرة، وزوجي توفي منذ زمن بعيد، ولم ننجب أطفالاً يعينونا في وقت كبرنا؛ ولذا أنا وحيدة الآن. أعملُ في تنظيف المنازل مقابل أجرٍ زهيدٍ جداً، أتخذُ من بعضهِ مصروفاً لي، وأجمعُ ما يتبقى منه لأقيم ـ ولو يوماً واحداً ـ مجلسِ مصاب على الإمام الحسين عليه السلام".

هنا تذكرتُ أمر تلك النقود الملفوفة بقطعة المنديل، فقد كانت من فئات صغيرة، ومهترئة جداً حينما رأيتها.

"وفي هذه السنة، لم يَقبل دعوتي للقراءة أيّ خطيب، فحينما أدعو أحداً؛ إما أن يعتذر بكثرة مجالسه، أو يراني فقيرة فيحاول التملص مني بأيّ سبب كان.

لقد حزنْتُ كثيراً ولم أجد أمامي إلا البكاء تحت ذلك المنبر الصغير الذي أهداني إياه أحد أصحاب المنازل التي أخدم فيها حينما اشترى

منبراً جديداً له، ولما توقفت من البكاء، أردتُ أن أخفف من وطأة حزني، فخرجتُ أنظف خارج منزلي حتى رأيتك تعبر من أمامه".

فقال لها الشيخ بعد أن اغرورقت عيناه بالدموع: "أسألك بالله، هل سمعتِ صوتاً بالأمس في أثناء قراءة المصاب؟".

فقالت: "نعم سمعت، وأنا أسمع هذا الصوت كلّ سنة في منزلي".

انتهيتُ من نقل هذه القصة والشيخ ما يزال يذرف الدموع بغزارة في أثنائها وبعدها. أعتقد بأنه فهم مغزى هذه القصة، وفهم ماذا أريد أن أوصِّل لهُ من رسالة.

بعد ذلك مسح دموعه، ثم دخل في حالة صمت وهو يحدّق في الأشجار التي كانت تحيطنا، بدا لي أنّ عقله يجول في كلّ مكان من دون أن يكون في مكان محدد.

ثم قال: "هل تريد أن تزداد يقيناً بقضية التطوع لخدمة الإمام الحسين عليه السلام ؟"

أجبته دون تردد: "نعم، قل لي ما تخفيه من ذلك".

حدّق الرجل مرة ثانية نحو الأعلى؛ ولكن هذه المرة كان ينظر إلى السماء وكأنه يستمدّ مشاعره من هناك، ولما أنزل رأسه قال: "في ذلك اليوم الذي وبختني فيه تلك المرأة، قلتُ لجميع الخدام المتطوعين: "حينما يخرج جميع الزوار من الموكب اغسلوا الصحون، ورتبوا المكان، وضعوا جميع الأمتعة والأدوات بالمخزن؛ سوف نغلق الموكب اليوم، فما لدينا من مال لا يكفي لإقامة وجبة تليق بهم، وأخشى أن يتعرض شخص آخر غيري لموقفٍ كما حدث معي اليوم".

نزل الجميع عند أمري دون تردد. وبينما كنا نوشك على الانتهاء من إغلاق الموكب، دخل علينا رجلٌ يطلب استخدام الكنيف فأرشدته إليه. ولما انتهى من أمره وتوضأ، وقف يتأملنا بدهشة ونحن نقوم بعملية الإغلاق، فسألني: "ماذا يحدث؟ لماذا تغلقون أبواب موكبكم باكراً؟".

فقلت له: "الحقيقة، لم يعد لدينا مالٌ كافٍ لنستمر في تقديم الوجبات، ففضلنا أن نغلق المكان، وأجرنا إن شاء الله محسوب عند الزهراء عليها السلام".

فتح ذلك الرجل محفظته، وأخرج مبلغاً كبيراً من المال دون تردد أو حتى تقصٍّ في أمرِنا، ثم ناولني إياه وقال: "خذ هذا المال واستمر في تقديم الوجبات".

أخذته منه، وبدا لي بأنه أكثر مما نحتاج، فقلت له: "هذا المبلغ كثير علينا".

رمقني بنظرة جدية وقال: "ما يزيد منه اجعله مصروفاً للموكب في السنوات القادمة".

أدركتُ في ذلك الوقت الألطاف الإلهية التي ترعانا ولا تنسانا في أيّ وقت".

حينما انتهى من ذلك، نظرتُ إلى ساعتي دون قصد، فتفاجأت بأنّ الوقت قد سرق مني الكثير في جلوسي معه، ودعته وأنا لا أريد توديعه، ثم انطلقتُ مبتعداً لإكمال الطريق إلى كربلاء.

لم أتوقف بعد ذلك للراحة بتاتاً إلا مرة واحدة؛ توقفتُ لأشتري عربة من أجل وضع حقيبتي الثقيلة عليها، ولأداء صلاة المغرب مع جماعة صغيرة.

١٠٩

وكان هذا خطأ ارتكبته أثناء المشي؛ لأنّ أغلب الزوار يتوقفون مع أذان المغرب للصلاة والراحة والنوم، فحينما توقفت بعد أن أوشك منتصف الليل على الحلول، كانت الأماكن في المواكب ممتلئة، ولم يعد هناك أيّ شاغر لي فيها، ولأني دفعت الثمن في اليوم الثاني حينما تورمت أقدامي من كثرة المشي دون توقف.

على أيّ حال، قضيتُ ليلة ممتعة تحت السماء. افترشتُ الأرض وجعلتُ حقيبتي بجانبي لأتوسّد عليها، فأخذني النوم العميق من شدة الإرهاق.

لم أشعر في تلك الليلة إلا بألم قدميّ المتورمتين من التعب الشديد، وبيد ذلك الرجل ـ الذي لا أعلم من هو ـ وهو يضع غطاء على جسدي الذي تكور من البرد القارص بعدما قال: "لماذا هذا الرجل نائم بالعراء؟ أحضروا له غطاء".

اليوم الثاني في طريق المشاية

صباحٌ تلبّدت فيه السماء خلف الغيوم، وأضافت زخات المطر الخفيفة مع الرياح الباردة صورة جميلة لذلك الطريق، وهو يعجّ بالحركة والحيوية من قِبل حشود الزوار العابرة.

كنت جالساً أستمتع بمنظره من بعيد وأنا أحتسي كوب الشاي الساخن مع قرص الخبز المدور اللذين حصلت عليهما من موكبٍ ضج بأيدي النساء العاملات فيه.

جميلٌ كان منظر موكب الخبز الذي تخفق فوقه الرايات الخضراء، وقد اقتصرت خدمته على عنصر الإناث فقط.

فالكبيرات في السنّ كنّ يعجنّ وهنّ جالسات حول صحن العجين الكبير في حلقة دائرية، لم تخلُ من تبادل القصص القديمة، وهمسات الضحك الخافتة حينما تستطيب لإحداهن قصة المقام.

أما الفتيات الشابات فأخذن الأمر على محملٍ من الجد. كانت هناك مجموعة منهن تدوّر العجين بطريقة احترافية توحي سرعة ذلك بأنّ لهذه المهنة أسراراً معهن منذ أوقات الطفولة، ومجموعة أخرى وقفن على أفران الحطب يباشرن وضعه في داخل الفرن ومراقبته. كاد الصوت يكون منعدماً في جهتهن؛ إلا من صوت رئيستهنّ التي وقفت أمام واجهة الموكب تناول الخبز للزوار تارة بابتسامة مرحة، وتشجع الفتيات بكلمات حارة تارة أخرى؛ من أجل إنتاج كمية أكبر من ذلك الخبز الطازج، "قواكم الله يا بنات"، "أجركم على زينب"، "محسوبة الخدمة بالجنة".

وبطرفة عين شاهدتُ شاباً أطال لحيته، وأسدل على رأسه قطعة من القماش الأخضر تَكادُ أذيالُها تلامس الأرض من الطول، يمشي وحيداً بهيبة ذِلّ في وسطِ الطريق، ويضع بعض حلقات السلاسل المدورة في قدميه ويديه!

ساورتني الشكوك المحيرة من رؤية منظره، فحزمت أمتعتي بسرعة وغادرتُ في نفس اللحظة من أجل أن أُشبعَ نَهمَ فضولي من هذا المنظر الجديد، وغير المعتاد حقيقة على هذا الطريق.

سرتُ خلفه بضع مترات وأنا أراقبهُ في ذهولٍ شديد، فلما كِدتُ أن أصل إليه أثرتُ له اهتمامي بنبرةِ صوتي التي كانت تشيُ بالعجب: "أظنّ أنّ هذه السلاسل ثقيلة، أليس كذلك؟".

التفت إليَّ ورمقني بنظرة غارقة في تأملٍ غريب، أحسستُ بالانكماش على الرغم من أنه بدا مسترخياً ودوداً، وقال: "يجب على المرء أن يُشبعَ فكره، ويحاول تلمّس القضية الحسينية من روح واقعها ليستشعر مدى فداحة مصابها؛ ولا يكون ذلك إلا حينما يعيشُ بالتجربة بعض ما جرى على أهلها".

قطبتُ جبيني بعد سماعي هذه الكلمات منه؛ علّني لم أعِ ماذا تشير شذراتها، فهي لم تكن مألوفة؛ لعدم وضوح مغزى الأمر كاملاً منها؛ لكني فهمتُ مقصده بعدما أضاف قائلاً:

"أنا شابٌّ قوي البنية، وفي كلّ سنة أسمع خطيب قريتنا الواقعة في أطراف أذربيجان يقول في ذكر مصاب السبايا: إنّ الإمام السجاد عليه السلام والسيدة زينب عليها السلام وجميع من كان معهم من النساء والأطفال، قادهم الأعداء من كربلاء إلى الشام وهم مكبلين بالأغلال والسلاسل.

كان يؤثر في أعماقي تصور هذا المنظر حينما أسمعه منه، فأردت تجربة معاناتهم بوضع هذه السلاسل من النجف إلى كربلاء.

والحقيقة لقد ازداد تأثري من تصور حالهم في أمرين، هما:

الأول: التعب؛ فمنذ أن قطعت بضع كيلو مترات شعرتُ بالتعب الشديد، وأخذتُ أتساءل في نفسي:

كيف اعتراني التعب منذ البداية وأنا شابٌّ قوي البنية؟

فيا ترى، كيف كان حال أولئك الأطفال والنساء؟

والثاني: لم تفارقني نظرات الناس التي كانت تشي بالدهشة عند رؤيتي؛ هنا تصورت كيف كان يُنظر إلى ذلك الظعن كلما نزل في موطن.

هذان الأمران جسّدا في داخلي جزءاً من مقدار المعاناة والتعب، والمهانة والذلّ التي تعرض لها ظعن آل البيت عليهم السلام.

وأيضاً أتوقع أن تترك هذه الأغلال أثرها على جلدي ـ كما تركته على يد ورقبة الإمام السجاد عليه السلام ـ حينما أصل إلى كربلاء".

كان يسردُ لي كلماته وباب روحي مفتوح تتدفق مياه الحبّ منه إلى الداخل والخارج تأثراً بما أستشعره وأتصوره في خاطره بتلك اللحظة.

"لا تأخذ الكلمات مني بمعناها الظاهري مطلقاً، فما أحسّ به الآن لا يمكن التعبير عنه بالكلمات"، قالها وصوت تلك السلاسل قد بدا كالخلخال بين قدميه حينما زاد في سرعة مشيه وكأنه يهمّ بمغادرتي؛ فقرّرتُ أن أبذل ما بوسعي لتركه يختفي عن بصري، ففضولي قد أُخمدت نيرانهُ وسكن. وبهدوءٍ وبطء كنتُ أضع الخط حتى غاب عني بعيداً ولم أعد أرى له أثراً.

لذتُ بالصمت طويلاً مستغرقاً في لحظاتٍ من التفكير بإمعان في صور العشق التي ألتقطُها من هنا وهناك؛ علها تكون مخزوناً يمدني بقليل من الطاقة الروحية وأنا ملتحم بمسيرة الكون.

نعم، في ذلك الوقت بالذات تخيلتُ بأن جميع ذرات الكون تسبح نحو كربلاء؛ فليس البشر فقط من كان يسير، بل كلّ من كان له تعلق بقضية الإمام الحسين عليه السلام كانت رواحله صوب ذلك النداء الذي دوّى في الأرجاء يوم العاشر، "ألا من ناصر ينصرنا، ألا من ذاب يذبّ عنّا".

ألم يقل الإمام الصادق عليه السلام : «إنّ أبا عبد الله الحسين بن علي عليه السلام لما مضى بكت عليه السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن ومن يتقلب عليهن، والجنة والنار، ومن خلق ربنا وما يرى وما لا يرى»[1]؟

فهذا الصوت الملائكي: "لبيك يا حسين"، بدا الجو مشحوناً به في سحب السماء التي ازدحمت كأكوام من الرماد تتراكم بعضها فوق

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ـ: ج٤٥ ب٤٠/ ما ظهر بعد شهادته من بكاء السماوات والأرض... ص٢٠٦ ح١٠.

بعض، وفي تلال الأرض وهضابها وسفوحها وبطونها، وفي أنفس جميع الخلائق التي أودع ﷻ فيها شعاع كلمته.

عالم لا نهائي.. عالم مفعم بالصفاء.. عالم بعيد عن ويلات الأرض وما يجري فيها على يد الإنسان.

الأمر باختصار، كان كجنّة عرضها كعرض السماوات والأرض، تمزق شراينك وتذبحك من الوريد إلى الوريد إن لم تدع متنفساً لها في الدموع.

وبينما كنتُ مستغرقاً في تأملي لاح على نحو مفاجئ وجهٌ كأني أعرفه من بعيد، كانت قسماته مألوفة على مخيلتي؛ ولكن من هو يا ترى؟

"إنه أستاذي الشيخ نور الدين"، قلتها وأنا مبهور ومتفائل في داخلي برؤيته، فزدتُ من سرعتي حتى أصل إليه.

كان يبدو سعيداً وهو واقف تحت زخات المطر الخفيفة بعمامته البيضاء وصايته الزرقاء؛ في محاولة لتقديم أيّ نوع من المساعدات الدينية لكلّ من يحتاج إليها في ذلك الطريق.

وما إن رآني ابتسم ابتسامة تشي بالسعادة، وصاح بصوتٍ امتلأ بتصميمٍ غير متوقع: "أهلاً. أهلاً بالشيخ.. تفضل ارتاح قليلاً".

سحبني إلى داخلِ موكبٍ كان يخدمُ فيه وهو يمسكُ بيدي، كأنه والدي وكأني طفله الصغير الذي لم يره منذ مدّة، ولما انتهى بنا الجلوس في مكانٍ ضيق امتلأ هواؤه برائحة التوابل الخفيفة لقربه من مطبخ ذلك الموكب، شرع في الحديث عن العمل التطوعي الذي يقوم به الجميع.

فسألته أثناء حديثه: "ما السبب الذي يدعو إلى تقديم الخدمة هنا في كلّ عام؟"، لم يكن سؤالي هذا غريباً، فقد كنتُ أخفي إجابة سطحية له؛ ولكني كنتُ أرغب شخصياً سماع ذلك منه.

انخفضت حدة صوته وأصبح رقيقاً كهَدْهَدة الريح، ثم أجاب: "إنّ الخدمة في هذا الموكب خلال فترة الأربعين تمدّني بطاقة روحانية عجيبة تكفي لسنة كاملة في أمر التبليغ الذي أقوم به، هذا من جهة عامة.

ومن جهة أخرى، إنّ للمواقف التي أشاهدها وقعاً عجيباً في مرئيات نفسي، فمنها ما يترك أثره ـ الذي ينغرس بجذوره في مخيلتي، ويرفع من معنوياتي، ويزيدني تصميماً على تصميمٍ في كلّ ما يتعلق

بقضية الإمام الحسين عليه السلام ـ منذ لحظة مشاهدتي له. ومنها ما هو بالنسبة لي يُعد لغزاً تاماً يجعلني أحير صامتاً في مشاهدته دون أن يخطر على بالي شيء".

كان يبسطُ لحيته بيده وهو ممعن في التفكير قبل أن يضيف على كلامه: "مثلاً، في أحد الأيام التي قضيتها وأنا أقفُ على طرف طريق المشاية، رأيتُ موقفاً مبهراً سكب أجمة الدموع بلا إرادة من مقلتي.

لقد وصل شابٌ قطيع اليدين، وملأ الغبار ملابسه جرّاء سحل نفسه على الأرض عند موكب في الطرف المقابل، وجلس أمامه منتظراً وهو فاغر فيه يحدّق إلى الطعام الذي عُرض على الطاولة الأمامية.

"كيف سيأكل هذا الشاب الآن؟"، قلتها وأنا غارقٌ في انتظار مشاهدة ماذا سيحدث؟

صُعقت حينما تقدم منه شابٌّ آخر له نفس العمر تقريباً، فتناول صحناً من الطعام وجلس يطعمهُ وهو يبتسم بدفء له غير عابئ بما يحيط به.

لم أصدق أنّ هذا يحدث في عالمٍ انشغل فيه الجميع بنفسه، فأخذتني عبرةَ مشاهدته، وأضافت مشاعره لغزاً لصور المودة التي يمكن أن يحملها شابٌّ لشابٍّ آخر لا يماثله في صحة الجسد".

بعد هذه القصة القصيرة انطلقتُ مرة أخرى لإكمال طريقي تحت زخات المطر الخفيفة التي لم تتوقف منذ الصباح، متحاشياً برك الماء الصغيرة التي توزعت على الأرض.

وتوقفتُ مرة واحدة حينما رأيتُ ذلك المنظر الذي جعلني أعود أدراجي لتأمله.

كان شاباً نحيفاً، بانت عليه علامات الإرهاق والتعب، يجرُّ لوحاً خشبياً مربع الشكل لا يتجاوز النصف متر طولاً وعرضاً، سمّر في أطرافه أربع عجلات صغيرة، ووضع فوقه امرأة مسنة محدودبة الظهر، ملتحفة بوشاح أبيض بالٍ، تحاول الإمساك بأطرافه من الوقوع على الأرض أثناء المسير، وهي تتمتم بعبارات الحمد والشكر على توفيق الزيارة.

"السلام عليكم"، قلتها لذلك الشاب وهو ممسك بطرف الحبل الذي ربط آخره في تلك العربة، "من هي هذه المرأة؟".

فقال بأنفاسٍ أضعفها التعب: "إنها جدتي".

"ولماذا تجرّها على هذه العربة؟"، قلتها وأنا بين الابتهاج والدهشة!.

فأجاب: "كنتُ أعيشُ سعادة عارمة في قريتنا الصغيرة الهادئة، وبعدما استشهد والدي في حرب إيران مع العراق، اعتدتُ العمل لإعالة أسرتي المكونة من أمي وأخواتي وجدتي هذه التي أحملها فوق العربة الآن.

لم نكن نشعر برغبات كبيرة جداً، فما أتمناه وتتمناه أسرتي أمور بسيطة كنت عادة أستطيع تلبيتها وتوفيرها لهم بأسرع ما يمكن؛ وإن كان ما أكسبه لا يكفي إلا لتوفير الطعام ودفع أجرة المنزل.

ولكن أمنية زيارة الأربعين كنتُ أُسوّف لها بين حينٍ وآخر حينما تراود أحدنا؛ لعدم استطاعتي تحمل تكاليف السفر.

وبعد مضي مدة من عيشنا جميعاً في قفص هذه الأمنية، عزمتُ على تحقيق ذلك بأيّ طريقة كانت؛ فرأيتُ أنّ بمقدوري الذهاب كلّ سنة مع فرد وأحد من أسرتي فقط!

أخذتُ أمي في المرة الأولى، وأختي في المرة الثانية، وهذه المرة أخذت جدتي، وفي السنة القادمة سوف أحضر أختي الأخرى معي إن شاء الله".

"توقف أريد أن نرتاح هنا"، انطلق صوت العجوز من حنجرتها الثخينة وهو يحمل نبرة ملأتها العطف والحنان لحفيدها الشاب.

توقفنا عند موكب فاحت رائحة اللحم المشوي من مطبخه، ولما ساعدتُ ذلك الشاب في رفع جدته من على تلك العربة ووضعها على سجادة صغيرة فوق الأرض، جلستُ بعيداً أعاين معاملتهُ لها وكيف كان يحاول توفير كلّ ما تحتاجه من أمور.

وفي تلك اللحظة أحسستُ بأنّ لديّ طاقة كبيرة على المشي؛ بالرغم أنّ ظلمة الليل قد غطت على نهاره الماطر، فانطلقتُ غير عابئٍ بذلك مكملاً طريقي وأنا أشعرُ بالارتياح التام.

لا يقلّ شأن أحداث الطريق خلال فترة الليل عن أحداث فترة النهار بتاتاً، وإن قلّ عدد الماشين عليه لتوقف معظمهم للراحة والنوم؛ إلا أنّ رؤية المواكب التي توزع الطعام باستفاضة، وغيرها من صور الخدمة؛ لا تكاد تتوقف حتى في الساعات المتأخرة من الليل.

أخذني التعبُ أخيراً، ولم أجد مكاناً أنام فيه هذه الليلة أيضاً، أعتقدُ بأنّ درس الأمس ـ النوم في العراء ـ لم يُجْدِ نفعاً في إنسانٍ مثلي، فجلست قبالة مدخل مسجد صغير، وأسندتُ ظهري إلى شجرة قيقب صغيرة لأرتاح قليلاً.

كنتُ أشمُّ الهواء الذي كان يعبق برائحة الرطوبة التي تنبعث بعد هطول الأمطار، وأتذكر بعض الأحداث التي مرت في أثناء ذلك اليوم.

تذكرتُ صورة الفتيات الصغيرات اللاتي كنّ يمسكن بعلب المناديل في وسط الطريق وهنّ يصرخن، "لبيك يا حسين" في وجوه المارة، وما يكون من العابر منهن إلا مسح يده على رؤوسهن بحنان؛ ألا يُذكرك هذا بموقف حميدة بنت مسلم وهي تقول للإمام الحسين عليه السلام: لِمَ عمَّاه تمسح على رأسي كما يُمسح على رؤوس الأيتام؟، كنتُ أخاطب نفسي لأسترق منها الوجد.

تذكرتُ أيضاً كيف أهرقتُ الماء من فمي حينما مرّ موكب يُمثّل حال السبايا، وكيف صارت عيناي تنظران إلى سكينة والرباب والسيدة زينب عليهن السلام، وهنّ يُضربن بيد أولئك الأشقياء، وأمامهم الرؤوس المُشالات يلوح بها رجل بدا كالوحش من مظهر هيئته. كان الأمر مجرد تمثيل؛ ولكني شعرت بغيرة وحسرة فجرتا أعمق الأشياء في داخلي.

تذكرتُ ذلك الشاب الذي غلل قدميه ويديه، كان منظرهُ يذكرني بإمامي السجاد عليه السلام، وهو فوق بعير ضالع، وقد غُلّت يداه إلى عنقه والدماء تشخب من أوداجه لتروي خيوط ملابسه.

لم أزل أقلِّبُ صور الأحداث حتى التحفتُ بقطعةِ قماش صغيرة اشتريتها من بائعٍ جوّال بالطريق، وأخذني النوم العميق في أحضانه دون رحمة.

اليوم الثالث في طريق المشاية

استيقظتُ على صوتِ أذان صلاة الفجر المنبعث من مئذنة المسجد الذي عجّ بالناس إلى حدٍّ يستحيل أن تجد فيه مكاناً للتنفس، ناهيك عن أن تعثر على مكان تصلي فيه؛ فافترشتُ الأرض خارجاً للصلاة.

انتهيتُ من أوراد صلاة الصبح، ودسستُ أمتعتي في أماكنها، ولففتُ رأسي بخرقة صغيرة تاركاً نصف وجهي مكشوفاً، ثم بدأتُ أسير في طريقي، مبدياً دهشتي من مزيج الهواء الذي امتلأ بصوت القرآن وصوت دعاء الصباح.

صادفتُ في هذا الصباح شباباً من العجم يرددون دعاء الندبة سوياً، ومسافرين من كندا يوزعون كتيبات صغيرة عن واقعة كربلاء كُتبت باللغة الإنجليزية والعربية، وشباباً خليجين من عُمان لفوا الخرق المطرزة فوق رؤوسهم، يسيرون مع مجسم صغير جسّدوا فيه الرأس الشريف بقطع القماش، صنعوه في دولتهم، وفنانين من أماكن مختلفة عرضوا لوحاتهم في معرضٍ على الطريق، ونساء آسيويات الجنسية يمشين وعلى ظهورهن أعلام صغيرة كُتب عليها "طبيب جوال"، يقدّمن الخدمة الطبية بالمجان لمن احتاجها.

وصادفتُ امرأةً فقيرةً تجمعُ بقايا الطعام على ظهرِ حمارٍ أبيض قذر، يأكلُ الخبز العفن الملقى في صندوقٍ على حافة الطريق. وامرأة عجوز حزمت خرقة خضراء على بطنها، وتوسطت الطريق بصحنٍ من التمر المدُبّس.

كان بالرغم من اختلافاتهم اللانهائية في كلّ شيء تقريباً؛ إلا أنهم كانوا متآزرين في وحدة عجيبة، فالكلّ يبتسم بسخاء، ويحاول تقديم المساعدة للآخر دون عناء الطلب، والكلّ يحملُ بريقاً في عينيه يودي شعاعه نزفاً تفتّحت أبواب السماء له.

أما الخدمة الحسينية فقد كانت أشبه بموجة إعصار تكتسح راحة الجميع وتغطيها، فكلّ شيءٍ فيها كان يتحوّل ويتنوع باستمرار، تتشعّب إلى صفوف مواكب تتمايز أحجامها، تبرز إلى الضوء بأشكال عجيبة في الطعام الذي ينتشر باستفاضة ويزدهر في كلّ مكان.. أكاد أجزم بأنها حية في تلك الفترة لا يمكن أن تموت أبداً على طول الطريق.

كنتُ أتأمل مشاهد هذه الصور بحبٍّ جارف لجميع الذين يُقدمون، يكافحون، ويعانون فيه وأنا واقفٌ في مكانٍ يسوده الصمت والصفاء غير مبالٍ بالعالم حولي.

فقطع تأملي صوتٌ تعالى من موكبٍ كُتب على لافتته، "موكب أهالي المشخاب".

كان الخدم الولائيون يكدحون فيه من مختلف الأعمار بصورة متناسقة ومنتظمة؛ ليس هناك قانون وُضِع لينظمهم ويجدول أعمالهم،

بل كانت البسمة هي القانون الوحيد بينهم، وهي الرباط الذي يجعل الكلّ ينصاع إلى الآخر وقلبهُ نابضٌ دوماً بجملة: "خادم إلك مولاي"، حينما يوجه له أمر معين.

سرتُ نحو ذلك الموكب بخطى متأنية.. شيئاً فشيئاً بدأ ذلك المكان المحيط بي يتغـيّر ويتحول إلى عالمٍ آخر، تغيرت الجدران، تغيرت الأصوات، تغيرت الروائح أيضاً فأصبحت لاذعة أكثر، مفعمة بروائح التوابل والزعفران!

من هذا الإحساس عرفتُ بأني قد دخلتُ مطبخ ذلك الموكب، الذي كان جداره الأيمن متداعٍ شديد الانحدار، تسنّد على أعمدة من قصب الخيزران، وسقفه تغطّى بألواح من الحديد المتصدئ، وأرضيتهُ لا يكاد يخلو شبرٌ منها من النتوءات والالتواءات.

وثمة ثلة من الرجال يتجاذبون أطراف الحديث في وسطه بصوتٍ صاخب جداً، رمقوني بأعينٍ مشبعة بالفضول عندما اقتربتُ منهم على حين غرة.

"ماذا تريد من خدمة يا زاير؟"، سألني أكبرهم سناً كما كان يبدو من شعر الشيب الذي غطى رأسه ولحيته، ومن العصا الخشبية التي كانت بجانبه.

عرّفته بنفسي أولاً بنبرة تشي إلى التودد والحياء، ثم سألته عن اسمه.

"خادمك أبو زهراء، شيخ قبيلة المشخاب"، ثم أضاف وهو ملوحٌ بيده أغرب شيءٍ سمعته في حياتي: "سوف أخدمك اليوم بنفسي كرامة للإمام الحسين عليه السلام".

"شيخ قبيلة يخدمني!"، قلتها في داخلي بعد أن عضضت على شفتي ونظرتُ إليه بخجل.

"شكراً جزيلاً، فأنا أحتاج إلى إكمال الطريق؛ ولكن لفت نظري موكبكم، فأردتُ إلقاء نظرة عليه فقط"، قلتها بتصميمٍ حازم وأنا أشبك يديَّ كأني في حالة من التوسل.

فقال وهو يشير بأصبعه إلى ذلك القِدْرُ الكبير الذي أصابني بالذهول عند رؤية حجمه: "ألا ترى أنّ وجبة الغذاء قد جهزت للتوّ؟ اليوم غذاؤنا لحم عجل مع رز مزعفر.

فنحن أهالي المشخاب مشهورين بزراعة الرز المزعفر في النجف الأشراف، ويجب عليك تذوقه؛ أسألك بأبي الفضل العباس ألا ترد طلبي".

بعد أن أقسم عليّ أجبته بصوتٍ أجش: "إن كان ولا بُدّ سأتناول الوجبة فقط وبعدها سأكمل طريقي".

لم يعبأ بما قلت، ففز من مكانه بحركة سريعة وأحضر أنواعاً عديدة من الطعام: الفاكهة، اللحم مع الأرز، واللبن، والتمر، والسلطة.

حقيقة، عجبتُ من الروح حينما تتعلق في سماء عالمها لا يمتّ إلى عناصر التراب بصلة؛ كروح هذا الرجل التي اختفت خلف جسده الطاعن في المشيب؛ فأين عصاه الخشبية الآن؟

لم يتوقف من تكديس الطعام حولي إلا حينما أمسكتُ طرف رداءه وشددته قليلاً، وهو يرمقني بنظرة كانت في أشدّ صفائها، انسلت من بين قضبان جسدي، وأحسستُ بأنها تنتمي إلى طامورة عالم آخر غير هذا العالم.

"كفى، فأنا لا أستطيع تناول ربع ما قدمته"، صرختُ لأجعله يتوقف عن تقديم الطعام، "سأتناول القليل فقط".

فقال: " لا بأس، إذاً دعني أجلس بجانبك لأخدمك في بتقديم الطعام لك بيدي".

جلس قريباً مني وأخذ يناولني صحون الطعام تارة، ويسكب الماء ويقطع الفاكهة لي تارة أخرى، وأنا أنظر إليه بدهشة قبل أن أنفجر قائلاً: "ماذا تفعل؟ دعني أتناول الطعام وحدي".

ابتسم أبو زهراء بسخاء وقال: "لماذا تحرمني من خدمة زوار أبي عبد الله الحسين عليه السلام؟ وتقطع متعتي في ذلك؟"

"متعة"، قلتها وأنا أحاول ردّ قطعة الفاكهة من يده.

"نعم متعة، إنّ في خدمة زوار الإمام الحسين عليه السلام متعة لا يتذوقها إلا من جرّبها، ما رأيك في أن تجرّب الخدمة معنا اليوم بالموكب؟".

تذكرتُ فوراً السيد مسلم الذي عرض عليّ الخدمة في الموكب الواقع عند العمود ١١٠؛ فصرخت في قرارة نفسي: "يا إلهي، لقد نسيتُ أمره منذ ذلك اليوم"، ومن أجل تعويض ذلك وافقتُ على هذه الفكرة فوراً.

"هذه فكرة جميلة، ولكن ما هو طبيعة عملي؟"، قلتها وأنا أحاول طرد الأفكار السيئة التي بدأت تنهال عليّ بعد موافقتي.

هزّ أبو زهراء رأسه، واتسعت عيناه وقال: "عملك بسيط جداً، قدم معنا وجبة الغذاء للزوار فقط".

دقائق قليلة مضت ـ ونحن نتحدث عن أمور من هنا وهناك ـ، قبل أن يصيح أحدهم بصوت تضخم مثل جدول جبلي: "لقد حان وقت تقديم وجبة الغذاء".

ومن دون إرادة تركتُ أمتعتي في مكانها، ونهضتُ مع البقية الذين تجمعوا حول ذلك القِدْر الكبير، فرفعناه ووضعناه في خارج الموكب بالقرب من الطريق.

لم يكن هناك أحد يوزع الأعمال أو ينسقها بيننا، بل كان الجميع يحاول تقديم أفضل ما لديه بسدّ ما يراه ناقصاً منها.

أما عملي فقد كان سهلاً جداً، كنتُ أضع قطع اللحم المحمر الذي تفوح منه رائحة التوابل فوق صحون الأرز المزعفر. لقد كانت الرائحة المنبعثة منه جميلة جداً؛ لدرجة أني كنتُ أتذوق اللحم في كلّ مرة أضعه فوق الصحون.. علّها عادة من يشرف على ذلك في كلّ مناسبة!

كان شعوراً لا يُوصف، فللحظة كان العالم متوقفاً والأشياء الوحيدة التي تتحرك هي متعة الخدمة، وللحظة أحسستُ بتلك

الطاقة الروحية وهي تتدفق في داخلي، فتحولني من إنسان خجول يضع قطع اللحم على صحون الأرز، وهو مختبئ تحت أقدام الخدام، إلى إنسان يقف ويرفع بعضاً منها في يديه ليبحث لهما عن شخص يتناولهما.

"تفضل غذاء يا زاير"، "تفضل غذاء يا زاير".

تغير عملي فجأة، ووجدتُ نفسي واقفاً أصيحُ مع باقي شباب الموكب بصحون الطعام في وسط الطريق وأنا أترنّح بشدة، إذ لا أرض ولا موطئ تستقر عليها قَدماي من سعادتي.

في تلك اللحظة انعدم الحيث والتحيز، وتلاشى الزمن واضمحل، وتعطلت آخر متعلقات عالم الدنيا لديّ، ورحتُ أطوي دربي في نفقٍ كانت جدرانه تتموّج وتدور بسرعة فائقة، لتُضعضع كياني وتخلخله بأصوات الزوار الذين يمطرون لعنصر وجودي الدنيوي جمل الدعاء والتوفيق من أفواههم.

"ما الذي جرى هنا؟"، قلتها بعد أن شارف الطعام على الانتهاء، وظهري مسند إلى الحائط، وأنا أعيش في غمرة نشوة غريبة جداً.

"ما رأيك بشعور الخدمة؟"، بابتسامة قالها لي أبو زهراء.

فتحتُ فمي لأجيب؛ لكن قبل أن ينبعث مني أيّ صوت، قال أحد الخدام وهو يرفع سلة البرتقال من جانبي: "ما رأيك أن تبقى لتقديم وجبة العشاء معنا أيضاً؟"

"أتمنى ذلك، فلا أحد يستطيع ردّ هذا الشعور الذي أعيشه الآن؛ ولكن يجب عليّ أن أكمل طريقي"، قلتها وأنا أحاول النهوض للعودة إلى أمتعتي.

ربّت أبو زهراء على كتفي وهو مبتهج وعيناه تلمعان، ثم قال: "حسناً، حسناً، ولكن دعني أجهز لك بعض الطعام تأخذه معك في الطريق".

لم أستطع ردّ ذلك منه، "شكراً لكم، لقد قضيت وقتاً جميلاً اليوم في موكبكم وصحبتكم".

"أتمنى أن نراك في السنة القادمة أيضاً"، قال أبو زهراء قبل أن يقاطعه شاب كان يقف بجانبه ويقول وهو يهز أكتافه: "السنة القادمة سوف نجعلك تبقى في الموكب ليوم كامل".

ابتسمت ابتسامة عريضة، وقلت: "إن شاء الله، إذا وفقت أعدكم بذلك".

ودعتهم بعد أن اصطف جميع من كان في الموكب عند الباب الخارجي لإلقاء تحية الوداع.

هذا الجزء هو الذي بقيَ عالقاً في مخيلتي بعدما انطلقت، فصورتهم وقوف عند ذلك الباب تركت تموجاً في داخلي بقية ذلك اليوم.

وبينما أسيرُ وأقلب ما جرى في ذهني من أحداثٍ ممتعة جرت، لفت نظري ذلك الطفل الصغير الذي جعل من سلة الفاكهة مركبة له، ربط مقدمتها بحبل طويل وجعل أمه تسحبه وهو ينادي "لبيك يا حسين"، ويلوح بعلمٍ صغير في يده خلفها.

حقاً كم دمّر عقلي هذا الطفل، وجعلني أنتشي جنون العشاق الذين فُتنوا في الإمام الحسين عليه السلام، لقد أصبح عندي يقيناً من مشاهدته في أنّ من لا يـَجُنَّ في الإمام الحسين عليه السلام هو إنسانٌ لم يَفقه ولم يَعِ معاني الحبّ والهوى.

ما هي كربلاء؟! إلى الآن لم أستطع استيعاب كمية العشق الممزوجة بالهواء الذي أستنشقه قبل أن أسمع صوت أذان صلاة المغرب يدوي من مآذن الطريق.

١٣٦

توقفتُ لأداء الصلاة، ولم أشعر بأيّ تعب بعد أن خيم الليل، فأقدامي أظنها اعتادت على المشي المستمر. فقررتُ إكمال الطريق إلى كربلاء بعدما أنتهي من تناول وجبة الطعام التي أرفقها أبو زهراء مع أمتعتي.

الوصول إلى كربلاء

غطّ معظم الناس في سبات عميق، فالطريق بات أشبه بالقناة المفتوحة التي يمكنك أن تنساب من أيّ جزء شئت منها.

وفي ذلك الوقت من الليل، كان قلبي يتدفق فرحاً حينما شعرت بقرب وصولي إلى حرم الإمام الحسين عليه السلام. لم تكن غايتي التوقف عند دخولي أرض المجدلين بالفلوات (كربلاء)، واستغلال سيارة توصلني باقي الطريق؛ بل كان الوصول إلى الحرمِ نفسه هو غايتي وأمنيتي.

غمرني القمر بوهج شعاعه الجميل، وبدأ رذاذ ناعم من قطرات المطر يهمي ويغسل أجواء الطريق، فشكرتُ الخالق على هذه اللحظة المباركة التي اقترنت بالدعاء لي ولمن أوصاني من أخواني المؤمنين والمؤمنات، وأنا في حج العاشقين والناسكين والعارفين المتجهين إلى تربة الشفاء، وقبة استجابة الدعاء.

لم يبقَ سوى كيلو مترات قليلة، فمواكب الطريق قد غابت منذ مدة، وظهرت مواكب أخرى في شوارع مدينة كربلاء.

تقريبًا هي نفس المواكب الموجودة في النجف، ونفس المواكب التي عبرت منها في طريق المشاية؛ ولكن ما يميزها هو استحالة رؤية شبرٍ فارغ بينها، فتراصها جعل معالم الشوارع تختفي من ذهني، هذا بالإضافة إلى عدد الأعلام السوداء والحمراء وعدد الشعارات التي كانت تغطي جدران الأبنية.

لقد سحقني النوم، فانعطفت عند ناصية الشارع من أجل أن أنال قسطاً من الراحة فقط، فنيّة النوم وإن كانت تحاول إجباري على التوقف إلا أنّ شعور الوصول كان يفوقها بأشواطٍ كثيرة.

اقتربتُ من خيمةٍ صغيرةٍ فُتحت جوانِبُها، وافتُرِش بداخلها عددٌ لا بأس به من الأسرّة.

"أهلاً بالزاير"، صوت خفيف كهمس الريح سمعته انطلق فجأة من خلفي، ولما أدرت ظهري شاهدتُ فتاة من منظرها أوحي إليّ بأنها ليست عربية من حجابُ رأسِها، ونوعُ عباءَتِها، ولغتها. كانت تتحدث اللغة العربية؛ ولكن ليس إلى حدّ الإتقان، فأحسستُ بأنّ قصة مثيرة تنتظرني عند هذه الفتاة.

فقلت لها بصوتٍ اعترته رعشة متهدجة: "هل تتحدثين اللغة الانجليزية؟".

"نعم، أنا أمريكية الأصل"، فأخذت تعرفني عن نفسها بصورة سريعة بعدما قدمت لي كرسياً لأجلس عليه، وعلبة من الماء مع قطعتين من الفاكهة.

"من أين أنت؟ إنّ مظهرك لا يوحي بأنك من أهل العراق"، قالتها وهي تحاول ترك مسافة بيننا لتجلس على الأرض.

"أنا سعودي الجنسية، وهذه أول زيارة لي في الأربعين، ليست أول زيارة للعراق طبعاً، فقد زرتها كثيراً وأقمت فيها"، ثم أضفتُ سؤالاً بعد ذلك وأنا غير مكترث بنوع إجابته، "ماذا تفعل أمريكية هنا؟ هل أنت زائرة أم ماذا؟".

ارتسمت على قسماتها ملامح متقلبة، "هل تريد أن تسمع قصة في هذا الوقت من الليل؟"، قالت.

فقلت بنبرة سريعة: "كلي أذنٌ مصغية"، لم تكن تعلم بأني أبحث عن ذلك في رحلتي هذه.

"في الواقع كنتُ مسيحية على دين آبائي، ولم أفكر بأمر الدين إلا حينما سكن مقابل شقتنا عائلة مسلمة.

فقد كان لديهم فتاة في نفس عمري تقريباً اسمها أمل، ومع مرور الأيام من المجاورة أصبحنا صديقتين حميمتين، بل كأختين. كنا نفعل كلّ شيء كما تفعل الفتيات الحميمات سوياً: نخرج، نأكل، وأحياناً ننام بحكم أنّ شقتينا كانتا متقابلتين، فهذا الأمر قد أورث نوعاً من الطمأنينة والراحة لدى آبائنا".

لم تذهلني بداية القصة، وأحسستُ بأنّ أمرها مألوفٌ في الدول الغربية؛ فهناك الكثير من نماذج هذه العلاقة.

"ثم ماذا؟"، قلتها وكأني أريد منها أن تختصر عليّ أمر وجودها في كربلاء، فالحقيقة أنّ النوم قد بدأ يصارعني بشدة، ولا طاقة لديّ على سماع أمر مألوف، فما أبحث عنه هو المميز النادر فقط في رحلتي.

"يا رجل، انتظر ماذا بك؟"، صاحت بصوت خفيف مع ابتسامة هادئة في وجهي، وعرفت الآن أنها ستترك التفاصيل الجانبية وتمدني بذات روح القصة.

أكملت بعد أن زمّت شفتيها بحزن شديد، وقالت: "لم نكن نتطرق لأمر الدين بتاتاً، فقد كانت أمل تحافظ على صلاتها وأمور عبادتها في أيّ مكان وفي أيّ وقت؛ لدرجة أننا وفرنا لها سجادة خاصة لذلك في شقتنا، ولم تكن هي تكترث لأمر ديني أيضاً، فلا أتذكر بأنها سألتني عنه ذات مرة، أو حاولت أن تستفسر عن أمر الصليب الذي كان معلقاً في غرفة معيشتنا. لقد كانت حياتنا كأصدقاء جميلة؛ ليس بيننا فقط بل حتى بين آبائنا.

وفي يوم من الأيام أصاب والدتي وعكة صحية، على أثرها دخلت المستشفى لأيام.

بعد الفحوصات الطبية أخبرنا الطبيب: بأنها مصابة بورم في الدماغ، فنزل الخبر كالصاعقة، وخيّم الحزن بعده في حياتنا.

كنتُ أبكي في ذلك اليوم بشدة حينما دخلت عليّ صديقتي أمل، وحينما أخبرتها بما قاله الطبيب حاولت أن تبدي لي أسفها وحزنها بما جرى، وظلّت طوال الليل تحاول زرع بذور الصبر والتسليم لقضاء

الله ﷻ وقدره في داخلي؛ ولكن ألمي كان يمنع استقبال أيّ فكرة دخيلة في ذلك الوقت.

بقيتُ على حالي لأيام متأثرة من هذا الخبر، وزاد تأثري حينما علمتُ بأنّ والدي أعاد الفحوصات في مستشفيات أخرى؛ ولكن النتيجة كانت متماثلة.

والدة أمل إنسانية في قمة التديّن والأخلاق الحسنة كابنتها، ودائماً ما كنت أسمع صديقاتها ينادونها "علوية"، لم أكن أعلم لماذا؟ أو ما هو معنى هذا اللقب؟؛ ولكني علمت بمعناه حينما زارتني في ذلك اليوم وهي تحمل طبق وجبتي المفضلة من يديها.

"لقد أحضرت لك وجبة البرياني. أعلم بأنك تحبينها، هيّا تناولي ولا تحزني، فأمر والدتك فوضته إلى جدتي فاطمة الزهراء عليها السلام" قالتها وأنا جالسة على سريري، واضعة رأسي بين ركبتي، وهي تربت على كتفي قبل أن تسحبني بشدة إلى وسط أحضانها الدافئة.

"من هي جدتك؟"، قلتها بهمس وأنا ملتحمة بحضنها.

فقالت: "جدتي هي فاطمة الزهراء عليها السلام، ابنة النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، وزوجة وصيّه أمير المؤمنين عليه السلام، وأم الحسن والحسين

سيدا شباب أهل الجنة عليهما السلام" ثم أخذت بعد ذلك تتحدث لي عن فضائل جدتها.

اعتقدتُ بأنها تحاول سرد حكاية أسطورية من أساطير الرومان التي ندرسها بمدارسنا من أجل تهدئة روعي، وإجباري على تناول وجبتها بلطف؛ ولكن الأمر لم يكن كذلك، كما تبين لي لاحقاً.

"غداً سوف أذهب معكِ لزيارة والدتك لأطمئنّ على حالها"، قالت بعدما جعلتني أتناول بضع لقيمات من يدها وهي تسرد حديثها.

في اليوم التالي ذهبت معنا لزيارة أمي وهي تحمل كيساً أسودَ، لم نكن نعلم ما بداخله، لا أنا ولا أبي؛ ولكني كنتُ متأكدة بأنّ ما فيه ليس وجبة طعام؛ لأنها كانت تحاول حمايته طَوَال الطريق، وكأنه كنز ثمين لديها.

وصلنا إلى المستشفى، وتوجهنا أنا وهي إلى غرفة والدتي مباشرة. أما أبي فقد توجه إلى الطبيب المسؤول عن أمي؛ ليستعلم عن الجديد في حالتها.

احتضنتُ أمي في وسط الدموع الثقيلة الداكنة، وتبعثرت روحي إلى أشلاء مع أنفاسها، وحينما هدأ روعي الذي اضطرب من رؤية

عدد الأسلاك التي كانت موصولة بها، تذكرتُ أم أمل الواقفة خارج الغرفة؛ لأنّ الممرضة أجبرتنا على الدخول لأمي، واحدة تلو الأخرى.

فقلت: "أمي، جارتنا أم أمل تنتظرُ خارجاً، سأخرج الآن لتدخل هي".

"أم أمل! مرحباً بها، إنّها جارة طيبة جداً، دعيها تدخل بسرعة، لقد اشتقتُ السماع لحديثها عن جدتها الزهراء عليها السلام"، قالتها وهي تحاول تغطية شعر رأسها بوشاح خفيف أبيض كان بجانبها.

رحتُ أحدّق في وجهها، لما لمحتُ مسحة من الاهتمام بهذا الأمر على قسماته، ثم قلت بذهول: "فاطمة الزهراء عليها السلام! لقد حدثتني بالأمس عنها؛ ولكني اعتقدتُ بأنها حكاية أسطورية، هل صحيح ما قالته أم أمل عنها يا أمي؟".

فقالت: "ليس هذا الوقت المناسب لمثل هذا الحديث، سوف نتكلم في الأمر لاحقاً، اذهبي الآن بسرعة، واستدعي جارتنا الطيبة فلا أكاد أطيق الانتظار أكثر لرؤيتها".

خرجتُ من الغرفة، ودخلت أم أمل لها. لم أكن أعلم ماذا أفعل في هذا الوقت؟، فجلستُ على كراسي الانتظار لأتيح لها الوقت لرؤية أمي.

وبعد فترة ليست بطويلة جاء أبي والحزن قد طوّق ملامحه، وما إن رآني جالسة هناك، حتى قال وهو يومئ بيده نحوي بتعجب: "ماذا تفعلين هنا؟".

"أم أمل بالداخل مع أمي، وأنا أنتظر خروجها".

استدار نحو باب الغرفة، ولما أحسّ بعدم وجود الممرضة المسؤولة عنده، قال: "دعينا ندخل سوياً، فالممرضة ليس موجودة لتمنعنا".

وما إن وطئنا داخل الغرفة حتى وضعنا أيدينا على أفواهنا من صدمة ما شاهدناه، لقد كانت أمي مغطاة بقطعة قماش سوداء كبيرة، طُرِّزت عليها كتابات عربية باللون الذهبي والفضي، وأم أمل كانت واقفة على رأسه تقرأ كلمات عربية غريبة من ورقة صغيرة بيدها؛ حتماً ليست من القرآن، فأنا أعرف كلماته من ابنتها حينما تقوم بتلاوته في شهر رمضان.

"ماذا تفعلين؟"، صرخ أبي بنبرة تشي بالغضب.

لم تكترث أم أمل لصوته واستمرت في قراءتها؛ فردت عليّه أمي: "لا تخف يا جوزيف، إنّها تباركني وتدعو لي بالشفاء".

أُقسم بأني لوهلة رأيتُ هالة عنبرية اللون تحيط بأم أمل وهي تقرأ عليها تلك الكلمات، ولم نستطع أنا وأبي فعل شيء سوى الامتثال لرغبة أمي.

ولما انتهت أم أمل من قراءتها، ودعنا أمي وغادرنا بهدوء تام، ولم نتحدث أنا وأبي إلى أم أمل ببنت شفة أثناء الطريق، فلم نسألها عن قطعة القماش السوداء التي تحملها معها، ولا عن الكلمات التي كانت تقرأها فوق رأس أمي، ولا عن الماء الذي سقتها إياه ومسحت على رأسها وجسدها منه حينما انتهت، فالصمت كان رفيقنا، وكلّ ما تبادلناه هو تحية الوداع قبل أن نفترق أمام مدخل شقتينا".

توقفت الفتاة هنا بعد أن أخذت تبكي، وتمسح دموعها بأكمام ثيابها؛ فالبسمة التي ابتدأت بها حديثها تلاشت أدراج الحروف، ولم أعدْ أرى إلا فتاة مكسورة أمامي، تحاول استرجاع أثر ذكريات مؤلمة تجول في عالمها الغريب، الذي أخذ يشدني نحوه بحكاية أمها.

غمرني شعور الحزن كثيراً، ولم يكن لديّ شيء أقوله لها في تلك اللحظة، وكأنّ الكلمات قد نضبت مني فجأة، فجلست صامتاً أترقّب بقية حكايتها، وأنا مطأطئ رأسي لأسفل.

ثم قالت: "خرجت أمي من المستشفى بعد أيام، فلا حاجة من جلوسها فيه، وعادت إلى شقتنا.

مرّ أسبوع، ثم أسبوع آخر، وفي كلّ يوم كانت أم أمل تأتي وتضع تلك القطعة السوداء، وتقرأ نفس تلك الكلمات من نفس تلك الورقة، ثم تسقي أمي قليلاً من الماء من تلك العبوة وتمسح على رأسها وجسدها، وتغادر شقتنا بصمت.

استمر الحال هكذا لفترة، وكلما سألنا أمي: "ماذا تفعل؟.

تجيبنا بنفس الإجابة: "إنّها تدعو لي بالشفاء فقط".

وبعد مضي شهر أو أكثر تقريباً، حان موعد الفحوصات الجديدة لأمي من أجل تحديد موعد لعمليتها لإزالة ذلك الورم من رأسها، الذي نبّأ الأطباء سابقاً على أنّ نسبة النجاح فيها لا تتجاوز العشرة بالمئة.

"أعتقد بأنّ الفحوصات ليست سليمة، عليكما بإعادتها ثانية"، قالها الطبيب المسؤول عن حالتها ونحن نقف كالحلقة حول سريرها بالمستشفى.

"ماذا حدث؟"، قال أبي وهو ينظر إليه نظرة تشي بعدم الاكتراث بما يوجد في تلك الأوراق، فالقدر قد حسم أمره لديه.

"الفحوصات تشير بأنّ الدماغ سليم تماماً، ولا يوجد هناك ورم في صور الأشعة كما في السابق!"، قال الطبيب وهو يمعن النظر في أوراق الفحوصات، ويقلبها واحدة تلو الأخرى كالمجنون الذي فقد عقله للتوّ.

لم أكن أنا مهتمة بذلك أيضاً؛ لاعتقادي أنّ الخطأ في الفحوصات أمر وارد الحدوث.

أما أمي حينما سمعت ذلك، أخذت تبتسم في تلك اللحظة، وعيناها مغرورقتان بالدموع، وهي تحاول البوح بكلمات ما؛ ولكن الموقف كان يجبرها على لزوم الصمت والاكتفاء بالبكاء فقط.

"ماذا بك يا أمي؟"، قلتها بعد أن أشحت بنظري من الطبيب إليها.

فأجابت بصوتٍ جهوري عميق: "لقد قالت لي أم أمل بأني سوف أشفى ببركة راية الإمام الحسين عليه السلام وزيارة عاشوراء، وبتربته التي أذيبت في ذلك الماء".

"ما هذه الترّهات! ما هذه الخرافات يا امرأة؟ هل هذا هو الوقت المناسب للشطحات؟"، صاح أبي بنبرة استياء.

"ليست خرافات يا جوزيف، سوف ترون بأنّ هذه الفحوصات سليمة، دعوهم يُعيدُوها للمرة الألف"، قالت أمي ذلك بعد أن جلست منتصبة على السرير، وكأنّ ملاكاً مرّ عليها فنفث من نوره في جسدها.

هرع الطبيب مسرعاً لإعادة الفحوصات مرة أخرى، وكانت نتيجتها كسابقتها!.

"الدماغ سليمٌ تماماً! يا إلهي. أنا متأكد من الورم الذي كان في رأسها، ماذا حدث لك؟"، قالها الطبيب بعد أن قرأ الفحوصات الجديدة مرة تلو مرة.

أُصيب أبي بصدمة عجيبة من الذهول هذه المرة، فقام من على كرسيه وهو يصرخ: "ما هذه الترّهات؟ أعتقد بأنّ فحوصاتكم ليست سليمة بالقدر المطلوب".

أخذنا أمي في ذلك اليوم لثلاثة مستشفيات لإجراء الفحوصات لها، وتأكدنا في نهاية اليوم بسلامتها تماماً!

وفي طريق عودتنا، توقفنا لتناول العشاء في مطعم قريب من شقتنا. بداية كان الصمت يطبق على أفواهنا، ثم قال أبي وهو ينظر إلى أمي بنظرة حب صادقة: "أصدقيني القول يا ميري، ماذا يحدث معكِ؟".

وضعت أمي ملعقة الطعام جانباً، ومسحت فمها بالمنديل ثم قالت: "سوف أتحدث لكم، ولكن عِدَانِي بأنّ تتقبلوا الأمر بسعة صدر تامة".

"تحدثي، نعدكِ بذلك"، قلناها سوياً أنا وأبي.

ثم قالت: "أنا مسلمة!".

توقف أبي عن تناول الطعام فجأة، وأخذ ينظر إلى أمي بنظرة مرعبة.

ثم أضافت على جملتها السابقة: "لقد اعتنقت الإسلام منذ مدة على يد جارتنا أم أمل..". أخذت تسرد لنا حكاية إسلامها وكيف أنها تأثرت بقضية السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وقضية الإمام الحسين عليه السلام.

"وشفائي من مرضي هو ببركة أهل البيت عليهم السلام"، أنهت حديثها بهذه الجملة.

لم نكن نعي أيّ شيءٍ مما قالته لنا، ولم نفعل شيئاً سوى الاستماع لها بصمت.

غادرنا بهدوء تام، وعدنا في اليوم الثاني نمارس حياتنا كما كانت في السابق وكأنّ شيئاً لم يحدث، والفرق الوحيد هو أنّ أمي لم تعد تصلي مختبئة منا على السجادة التي وضعتها لأمل في شقتنا؛ بل باتت تفعل ذلك علناً، ففي الحقيقة كانت هذه السجادة لها أيضاً.

بعد فترة اعتنقتُ أنا الإسلام أولاً، ثم اعتنقه أبي كذلك تأثراً بما كنا نراه وما رأيناه من حالة أمي النفسية والجسدية، وبما كانت تحكيه لنا في الليالي التي نجتمع فيها سوياً عن الإسلام.

وفي هذه السنة عزمنا ثلاثتنا على زيارة الإمام الحسين عليه السلام فحضرنا مع أم أمل للعراق، وهذا الموكب هو موكب عائلتها".

ختمت الفتاة قصتها وإحساس عدم الشبع من أحداثها كان يطوّق مخيلتي. فقد كانت لديّ أسئلة كثيرة لم أجد لها إجابات شافية؛ ولكني حينما نظرتُ إلى ساعتي علمتُ بأنّ ساعة ونصف مضت بسرعة البرق وأنا أستمع لها.

"هل تريد مقابلة أمي وأبي؟"، قالتها بعدما رأتني أهمّ بالمغادرة.

أومأتُ برأسي كعلامة للرفض، وابتسمت ابتسامة ودودة ثم قلت: "شكراً لك، عليّ إكمال طريقي إلى الحرم. قصة مثيرة لا أعتقد بأني سأنساها أبداً".

انطلقتُ وعقلي لا يزال مشلولاً عن التفكير في تلك القصة حتى علا صوت أذان الصبح من مآذن مساجد كربلاء.

كان من بينها صوت أذان مميز، "إنّي أعرف صوت هذا الأذان"، قلتها وأنا واقف أتأمله، "إنه صوت أذان حرم الإمام الحسين عليه السلام".

الوصول إلى الحرم

كنتُ أمشي وأردد بعض أبيات القصيدة المشهورة، "أنا جيتك يا حُسين بعبرتي، أنا جيتك تجري يمّك دمعتي، أنا جيتك والدمع بعيوني، خادمك يا بو الوفاء سمّوني"، حينما شعرتُ لوهلة بأني قريب من حرم الإمام الحسين عليه السلام في ذلك الصباح.

كان الازدحامُ يملأ الشوارع لحدّ لا يمكنك رؤية شيءٍ فيها غير المواكب التي غصّ بها المكان ـ حتى الأراضي الخربة لم تسلم من سطوة المواكب الصغيرة عليها ـ، والأجساد البشرية المهولة التي ملأت أنفاسها كلّ شبرٍ من أرض كربلاء.

"يا إلهي، أين أنا؟"، قلتها وأنا أحاول النظر يميناً وشمالاً وسط تلك الحشود، علّني أجد شيئاً يُرشدني إلى طريق الحرم.

"أنت في بداية شارع القبلة للإمام الحسين عليه السلام"، قالها شخص كان يقف أمامي وهو يحاول الابتسام بمودّة، ثم أضاف: "لن تستطيع الوصول إلى الحرم مع عربة الأمتعة هذه، حاول أن تتخلى عنها وتحمل حقائبك فوق ظهرك".

فعلاً لقد كانت العربة تُعرقل حركتي كثيراً، فوهبتها لبائعٍ أفترش الرصيف ببضاعة متنوعة، وأكملت سيري بعدها.

على الرغم من امتعاضي لأمر الازدحام الخانق؛ إلا أنيّ كنتُ أتوق الوصول إلى الحرم الشريف بتصميمٍ لا مثيل له، فلم أعد أبالي بأيِّ شيءٍ في تلك اللحظة غير هذا.

أضف إلى ذلك، لقد كان هناك شيءٌ يسبح في الأجواء لا مجال لكلمات الأدباء فيه، يجذبني نحوه بشدة، ألا وهو روحانية المكان وصفائه.

تركتُ نفسي الثائرة تنجرف فيه مع تيار الحشود من دون أن أتمسك بأيّ فكرة كانت، فهذا الوقت هو وقت الدعاء واستقبال فيض الإجابة بلا شك، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الرجل

ليخرج إلى قبر الحسين ـ صلوات الله عليه ـ، فله إذا خرج من أهله بأول خطوة مغفرة ذنوبه، ثم لا يزال يقدّس بكلّ خطوة حتى يأتيه، فإذا أتاه ناجاه الله تعالى، فقال: (عبدي سلني أعطك، ادعني أجبك، اطلب مني أعطك، سلني حاجة أقضها لك)»[1].

توقفَت حركةُ السير فجأة من دون سابق إنذار، ولما رفعتُ رأسي لأشاهد ما الأمر؟ إذ ببصري يلتصق بتلك القبة الذهبية التي رمى سطوعها قلبي بسهمٍ ليصمه ويرديه في مكانه.

انكسرت عجلة الزمن هنا؛ لأنه سرى في جسدي خدر من وصلة ذلك المنظر الذي أخذ ينقل ضروب المصاب إلى مخيلتي، ويضرم نار الكآبة والغصص في داخلي.

كنتُ في مكاني لم أنتقل، ولكن مشهد اللحظة هو الذي غاب عني، حيث توارت عن عيني شوارع كربلاء التي كنتُ أنظر إليها، وانتقلت بي الصور إلى عهدٍ سابق، تحملني من فرط أسى واحدة وترميني على ركاب ألم أخرى.

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٨ أبواب فضل زيارة سيد شباب أهل الجنة أبي عبدالله الحسين عليه السلام ب٤/ أن زيارته ـ صلوات الله عليه ـ يوجب غفران الذنوب.. ص٢٤ ح٢٠.

صورةٌ أخذت تغذيني بروافد جديدة من الرثاء والبكاء والجزع، إنها صورة افتراش هذه الأرض بأجساد أهل بيته عليهم السلام وأجساد أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ: أخيه العباس، ابنه الرضيع، القاسم، علي الأكبر.. الحرّ بن يزيد الرياحي، زهير بن بشر الخثعمي، حبيب بن مظاهر الأسدي، جون مولى أبي ذرٍّ الغفاري، مسلم بن عوسجة... وغيرهم الذين جاءهم النداء منه عليه السلام: "هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا ثم ليأخذ كلُّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله؛ فإنّ القوم إنما يطلبوني ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري".

فجاءهُ ردّهم على لسان أخيه العباس عليه السلام: "لم نفعل لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً"[1].

وصورة جالت واستعرضت بدقة تفاصيل ذلك الجسد الذي حُزَّ نحره، وبقي ثلاثاً من دون غسل ولا كفن تذروه الرياح، فكأني في هذه اللحظة أسمع صوت أمه من باب السماء تناديه: "ولدي، لم يسقوك ماء، ولدي، ذبحوك كما تذبح الشاه، ولدي، لم يغسلوك ولم يكفنوك"، وكيف أنّ حروف كلماتها تنزل مع مطر ذلك اليوم.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام ـ أبو مخنف الأزدي: ص١٠٩.

وأما الصورة التي خارت لها القوى ووهن منها الجأش، صورة السيدة الجليلة زينب عليها السلام حين وصولها في يوم الأربعين، وهي تكبو من جزع على قبر، وتعثر في أذيالها على آخر، حتى وصلت إلى قبر أخيها الحسين عليه السلام وهي تحمل رأسه الشريف معها.

انهارت دموعي لما تصورتُ حالي خالي الوفاض، ولم أحمل معي للإمام الحسين عليه السلام في هذا اليوم سوى حطب الذنوب؛ وتساءلت حينها:

هل يمكن للإمام عليه السلام أن يستقبل روحي الضائعة وجسدي الآثم؟

لعلّ شغف حبي الذي جعلني أتركُ الأهل وأسير إليه يكون قربان تقربي إليه؟

كنتُ أعيش في حالة تأنيب الضمير العارم قبل أن أطمئن نفسي التي أخذت ترتعد بقول الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام:

«أدنى ما يثاب به زائر أبي عبد الله عليه السلام بشط الفرات إذا عرف حقه وحرمته وولايته أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[١].

"إلهي اجعلني ممن عرف حقه وعرف حرمته، ومن المتمسكين بولايته"، قلتها وأنا أحاول استرجاع طاقتي التي استنزفها البكاء والتضرع لإكمال المسير.

وصلتُ إلى الباب المفضل عندي في الدخول على صاحب الشيب الخضيب والخد التريب "باب القبلة"، وأنا في ذروة الخشوع والخضوع، ولم أتركه إلا بلثم القبلات التماساً للبركة منه.

امتزجت لوعة رؤية شباكه عليه السلام من بعيدٍ مع صوت ذلك الناعي الذي وقف في الصحن وأخذ يردد: "سمعي يمه فاطمة سمعي يا مظلومة.. من وصل ضعن الحسين لأرض الطفوف"، وصوت صراخ الزوار، "لبيك يا حسين"، فالصمت لم يعد له شخوص في هذا المكان.

وبعد هنيئة توجهتُ مع الحشود إلى غرفة المقام، وبصري قد انحسر في أضيق نطاق هناك؛ فلقد تسلط نحو الضريح المهيب الذي

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٨ أبواب فضل زيارة سيد شباب أهل الجنة أبي عبدالله الحسين عليه السلام ب٤/ أن زيارته ـ صلوات الله عليه ـ يوجب غفران الذنوب.. ص٢٤ ح١٩.

غطته صفائح الذهب والفضة، وهو ينتصب بشموخ فوق جسده الطاهر الشريف.

لم يكن هناك أحرار وأسياد، ولا عبيد وإماء، ولا فقراء وأغنياء؛ بل كان هناك عشاق تسابقوا بأيديهم إلى نيل شباكه، وهم يلهجون بحاجاتهم إليه، مقدمين دموعهم قرابين أمام طلباتهم.

لم أستطع وصوله، ولكني أرويت عطشي من النظر إليه وأنا أسِلُّ جراحي ومطالبي الشخصية التي ابتدأتها بقولي: "سيدي، منذ أن خرجت من منزلي وكرم البشر قد أحاطني محبة فيك. لقد كانوا كرماء لحد الوصف في كلّ شيء، في الطعام والشراب.. فهل يمكن أن يكون كرمهم أكرم من كرمك وأنت الكريم؟...".

خرجتُ من هناك بعد أن انتهيت من قراءة الزيارة والصلاة متجهاً إلى مرقد أخيه العباس عليه السلام.

وبين الحرمين شاهدتُ عالماً آخر: شاهدتُ رجالاً يزحفون على أيديهم، ونساء لطخن رؤوسهن بتربة كربلاء يبكين بجزع مفزع. شاهدتُ موكباً لشباب يضربون ظهورهم بالزناجيل، ورجلاً أعمى ينعى بصوتٍ شجي، والناس تحلقت حوله كالثكالى.

وشاهدتُ قبة أبي الفضل العباس عليه السلام وهي تسطع بإباء، فانزويتُ قليلاً قبل أن أدخل إلى مرقد الشريف من أجل أن أجرد جسدي العنصري وأنزعه بعيداً عن هذا الموقف لتنطلق روحي سابحة بارتياح تام.

وحينما انجلى ظلّ الموكب الذي كان يقف بجانبي، لفت انتباهي شابٌ نحيف، غطى رأسه بوشاح أسود طويل، وهو يستنطق كلمات النعي على لسانه، فتجيبه ممتثلة في صورة البكاء والعويل المشجي.

كان يبكي بحرقة وهو يلطم نفسه ويردد: "خذني معك يا حبيبي يا حسين، خذني معك يا حبيبي يا حسين" تارة، وينعى بصوتٍ شجي تارة أخرى.

جلستُ قريباً منه لأرتاح وأروي ظمأي من أبيات النعي التي كان يرددها؛ ولكني تفاجأت حينما قطعها وأخذ يقول: "أين أنت يا صديقي يا ناصر، خذوني معكم، قل للإمام الحسين عليه السلام أن يأخذني معكم؟".

"من هو ناصر هذا؟" قلتها وأنا أحاول تركيب صورة ناصر هذا مع الإمام الحسين عليه السلام ولكني لم أستطع.

وبالرغم من أني كنتُ متيقناً بعدم الظفر بأيّ قصة هنا وفي هذا الوقت بالذات؛ لانشغال الجميع بأمر لقائهم مع حبيبهم عليه السلام ولأنّ الصدور لم تعد مخفية بل يمكنك قراءة مشاعرها بوضوح تام الآن، فهي كالكتاب المفتوح تسبح حروفه في دموع وآهات أصحابها؛ إلا أنّ قصة هذا الشاب كان لها طعمٌ ولائيٌ من نوعٍ آخر.

انتظرتُ إلى أن هدأ من بكائه، وانفضّ جميع من كان يستمع لشجيه، ثم تقدم قليلاً وأنا أزحف جالساً على الأرض.

"السلام عليكم، عظم الله لك الأجر"، قلتها وأنا أنظر إلى عينيه الداميتين من حرقة البكاء.

فأجاب بصوت يشبه الهمس، "وعليكم السلام، وأنت كذلك عظم الله لك الأجر".

"هل لي بسؤال وإن لم يكن هذا وقته المناسب؟"

فقال: "تفضل، أنا في خدمتكم".

فسألته: "من هو ناصر الذي كنت تصرخ له، وأنت تنعى؟".

لقد فتحتُ على نفسي باباً ليتني لم أفتحه، فما إن سمعَ بذلك حتى عاد كالمجنون يلطم وجهه بيديه، ويصرخ بصوتٍ جعل كلّ من يعبر أمامنا يقف قليلاً لمشاهدة وجده في البكاء والنحيب.

عزمتُ على تركه والمضي؛ ولكن قبل أن أهمّ بالوقوف قال: "ألا تريد معرفة من هو ناصر؟".

فقلت له: "نعم".

فقال: "نحنُ مجموعة من الشباب الذين لم يعرفوا الإمام الحسين عليه السلام إلا من خلال شعائر العزاء التي تقام عليه؛ ولذا فقد كنا نهوى المشاركة فيها بصورة كبيرة، وخصوصاً تلك التي تكون مشاعرها جياشة لدرجة أنك لا تحتاج إلى مؤثر يزلزل مشاعرك فيها، كزيارة الأربعين التي لم نتخلّف عنها لسنوات.

في كلّ عام نأتي إلى كربلاء ونلتحق بأحد المواكب التي تقيم مراسم العزاء سيراً في الشارع. كان بعضنا يساعد أصحاب الموكب في كلّ شيء، ترتيب الصفوف، جرّ العربة، الإشراف على صوت السماعات. وكان صديقي ناصر المقرب عندي، يعشق بقوة ضرب الطاس في الموكب، فكانت هذه وظيفته في السنوات الأخيرة.

كان الموكب العام في نفس هذا الوقت يسير في شارع القبلة على صوت قصيدة حزينة، وكان ناصر هو المسؤول عن ضرب الطاس فيه.

فجأة ونحن نسير غاب صوت ذلك الطاس، ولم نعد نسمع إلا اللطمة فقط، فالتفتنا جميعنا نحوه، فرأيناه واقفاً ينظر إلى شيءٍ بعيد وهو يبتسم، ثم رمى الطاس من يده وتنحى إلى جانب الطريق، خلع نعليه وتمدد على ظهره فوق الأرض!

قلت في نفسي: "علّه تعب من السير؛ ولكن كيف يتمدد هنا؟"

ذهبتُ إليه لأرى أمره، فلما وصلتُ عنده رأيته مغمضاً عينيه وهو يبتسم، ناديته أولاً وأنا واقف على رأسه؛ ولكنه لم يجب، جلستُ وناديته وأنا أهزّ كتفه؛ ولكنه لم يجب أيضاً.. لقد انقطعت أنفاسه وفارق الحياة بهذه السهولة!

ليس موته المفاجئ هو من أصابنا بالذهول؛ فالأعمار بيد الله وقدره؛ بل الشيء الذي كان ينظر إليه من بعيد، وتنحيه وتمدده على الأرض هو ما جعلنا نتساءل كثيراً!

في نفس ليلة وفاته كنتُ أفكر في هذا الأمر بشدة حتى أخذني النوم، فرأيتهُ في عالم الرؤيا وهو في أبهى حلة، لقد كان وجهه كالنور يقف مبتسماً في بستانٍ أخضر كبير.

فسألته: "ماذا حدث؟"

فأجاب: "حينما كنتُ أسير مع الموكب، شاهدت رجلاً من بعيد له نور يحجب نور السماء من شدته، فتهيأتهُ سيدي ومولاي الإمام الحسين عليه السلام، هذا كلّ ما جاء في بالي تلك اللحظة وأنا أنظر إليه بتمعنٍّ تام، فابتسمت له وهو من بعيد، وابتسم لي؛ ثم قال بصوت اخترق مسافة الهواء حتى وصل إلى داخل قلبي: "هل تريد المجيء معي؟"

فقلت له: "نعم"

فقال: "ألقِ نعليك وتمدد".

فلم أتوانَ عن فعل ذلك لحظة.

انتبهتُ من الحلم وأنا جزعٌ على حظي الذي لم يوفقني للالتحاق معهم".

انتهى الشاب من سرد قصته، وعاد مرة أخرى في البكاء واللطم؛ ولكن هذه المرة لم يكن وحيداً في جنونه بل شاركتهُ أنا أيضاً ذلك، لا أحد يحاول لومي، لقد قلتُ سابقاً بأنّ هذه القصة لها طعم غريب من نوع آخر.

بعد ذلك، توجهتُ لزيارة أبي الفضل العباس عليه السلام الذي امتلأ مرقده من صراخ الحشود له، "لبيك يا عباس، لبيك يا عباس".

لم يقل مرقده عن مرقد أخيه في سيل المشاعر أو في أيّ شيءٍ آخر، بل كانا كلاهما كالتوأم في احتضان المحبين لهم والاستماع إلى هتافاتهم وصرخاتهم.

لم أستطع الدخول أيضاً إلى غرفة مرقده الشريف بسبب ازدحام الزوار حوله، فوقفتُ في صحنه وزرته من بعيد.

وقبل أن أهمّ بالخروج فاجأني شخصٌ التقيتُه سابقاً، إنه ذلك الشيخ الكبير الذي كان يوزع كتيبات الزيارة في مرقد أمير المؤمنين عليه السلام تحاضنّا من شدة الشوق والصدفة، وجلسنا نتبادل أحوالنا فترة، ثم غادرته مودعاً.

قبل أن أذهب إلى مقرّ سكني في كربلاء، جلستُ بين الحرمين أشكر الله على توفيق الزيارة، وأطلب لكلّ من أوصوني بالدعاء من المؤمنين والمؤمنات، وبعد ذلك أخذتُ قلمي وبدأتُ أفرغ الأحداث من صبابة عواطفي إلى صميم الكلمات.

فالأمور قد بدت ـ الآن ـ عندي في غاية الوضوح ومنتهى الجلاء، وليس ثمة جواب لكلّ ما يحدث هنا في زيارة الأربعين؛ أفضل من القول بأنّ هؤلاء الزوار مجانين!

إنْ أدركت ذلك في سطور هذه الرحلة فكان بها، وإنْ لم تدركه فجرّبه، وإنْ لم تدركه بعد التجربة فذر الأمر في سنبله واعفِ فهمك!

فالأمر عندهم فيه معادلة حبّ وإكسير عشق، وله كلمة سرٍّ هي: (أحبّكُ يا حبيبي يا حسين).

زيارة الأربعين

اَلسَّلامُ عَلى وَلِيِّ اللهِ وَحَبيبِهِ، اَلسَّلامُ عَلى خَليلِ اللهِ وَنَجيبِهِ، اَلسَّلامُ عَلى صَفِيِّ اللهِ وَابْنِ صَفِيِّهِ، اَلسَّلامُ عَلى الْحُسَيْنِ الْمَظْلُومِ الشَّهيدِ، اَلسَّلامُ على أَسيرِ الْكُرُباتِ وَقَتيلِ الْعَبَراتِ، اَللّـهُمَّ إِنّي أَشْهَدُ أَنَّهُ وَلِيُّكَ وَابْنُ وَلِيِّكَ وَصَفِيُّكَ وَابْنُ صَفِيِّكَ الْفائِزُ بِكَرامَتِكَ، أَكْرَمْتَهُ بِالشَّهادَةِ وَحَبَوْتَهُ بِالسَّعادَةِ، وَاَجْتَبَيْتَهُ بِطيبِ الْوِلادَةِ، وَجَعَلْتَهُ سَيِّداً مِنَ السادَةِ، وَقائِداً مِنَ الْقادَةِ، وَذائِداً مِنْ الذادَةِ، وَأَعْطَيْتَهُ مَواريثَ الأَنْبِياءِ، وَجَعَلْتَهُ

حُجَّةً عَلى خَلْقِكَ مِنَ الأوْصِياءِ، فَأَعْذَرَ فِي الدُّعاءِ وَمَنَحَ النُّصْحَ، وَبَذَلَ مُهْجَتَهُ فيكَ لِيَسْتَنْقِذَ عِبادَكَ مِنَ الجَهالَةِ وَحَيْرَةِ الضَّلالَةِ، وَقَدْ تَوازَرَ عَلَيْهِ مَنْ غَرَّتْهُ الدُّنْيا، وَباعَ حَظَّهُ بِالأرْذَلِ الأدْنى، وَشَرى آخِرَتَهُ بِالثَّمَنِ الأَوْكَسِ، وَتَغَطْرَسَ وَتَرَدّى فِي هَواهُ، وَأَسْخَطَكَ وَأَسْخَطَ نَبِيَّكَ، وَأَطاعَ مِنْ عِبادِكَ أَهْلَ الشِّقاقِ وَالنِّفاقِ وَحَمَلَةَ الأوْزارِ المُسْتَوْجِبينَ النّارَ، فَجاهَدَهُمْ فيكَ صابِراً مُحْتَسِباً حَتّى سُفِكَ فِي طاعَتِكَ دَمُهُ وَاسْتُبيحَ حَريمُهُ، اَللّـهُمَّ فَالْعَنْهُمْ لَعْناً وَبيلاً وَعَذِّبْهُمْ عَذاباً أَلِيماً، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَا بْنَ سَيِّدِ الأوْصِياءِ، أَشْهَدُ اَنَّكَ أَمينُ اللهِ وَابْنُ أَمينِهِ، عِشْتَ سَعيداً وَمَضَيْتَ حَميداً وَمُتَّ فَقيداً مَظْلُوماً شَهيداً، وَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ مُنْجِزٌ ما وَعَدَكَ، وَمُهْلِكٌ مَنْ خَذَلَكَ، وَمُعَذِّبٌ مَنْ قَتَلَكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ وَفَيْتَ بِعَهْدِ اللهِ وَجاهَدْتَ فِي سَبيلِهِ حَتّى أَتيَاكَ الْيَقينُ، فَلَعَنَ اللهُ مَنْ قَتَلَكَ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ ظَلَمَكَ، وَلَعَنَ اللهُ أُمَّةً سَمِعَتْ بِذلِكَ فَرَضِيَتْ بِهِ، اَللّـهُمَّ إِنّي أُشْهِدُكَ أَنّي وَلِيٌّ لِمَنْ والاهُ وَعَدُوٌّ لِمَنْ عاداهُ بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ نُوراً فِي

الأَصْلابِ الشّامِخَةِ وَالأَرْحامِ الْمُطَهَّرَةِ، لَمْ تُنَجِّسْكَ الْجاهِلِيَّةُ بِأَنْجاسِها وَلَمْ تُلْبِسْكَ الْمُدْلَهِمّاتُ مِنْ ثِيابِها، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ دَعائِمِ الدّينِ وَأَرْكانِ الْمُسْلِمينَ وَمَعْقِلِ الْمُؤْمِنينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ الإِمامُ الْبَرُّ التَّقِيُّ الرَّضِيُّ الزَّكِيُّ الْهادِي الْمَهْدِيُّ، وَأَشْهَدُ أَنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ وُلْدِكَ كَلِمَةُ التَّقْوى وَأَعْلامُ الْهُدى وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقى، وَالْحُجَّةُ على أَهْلِ الدُّنْيا، وَأَشْهَدُ أَنّي بِكُمْ مُؤْمِنٌ وَبِإِيابِكُمْ، مُوقِنٌ بِشَرايِعِ ديني وَخَواتيمِ عَمَلي، وَقَلْبي لِقَلْبِكُمْ سِلْمٌ وَأَمْري لأَمْرِكُمْ مُتَّبِعٌ وَنُصْرَتي لَكُمْ مُعَدَّةٌ حَتّى يَأْذَنَ اللهُ لَكُمْ، فَمَعَكُمْ مَعَكُمْ لا مَعَ عَدُوِّكُمْ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَعلى أَرْواحِكُمْ وأَجْسادِكُمْ وَشاهِدِكُمْ وَغائِبِكُمْ وَظاهِرِكُمْ وَباطِنِكُمْ آمينَ رَبَّ الْعالَمِينَ[1].

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٨ ب٢٥/ زيارة الأربعين ص٣٣١ ح٢.

مصادر الأحاديث

١ـ المزار ـ الشيخ محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبدالله العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد ـ تحقيق/ آية الله السيد محمد باقر الأبطحي.

٢ـ بحار الأنوار ـ العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي: بيروت ـ مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٣ـ ثمرات الأعواد ـ السيد علي بن حسين الهاشمي: المطبعة العلمية ١٣٦٧ش.

٤ـ مقتل الحسين عليه السلام ـ لوط بن يحي بن سعد بن مخنف بن سليم الأزدي ـ تعليق/ الحسن الغفاري.

٥ـ وسائل الشيعة ـ الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي ـ تحقيق ونشر/ مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

المحتويات

إهداء ٣
استهلال ٧
المغادرة مع قافلة الزوار ١٣
في مطار النجف الأشرف ١٩
خارج المطار.. متجهاً إلى مقر إقامتي ٢٣
في مقرّ إقامتي ٣١
زيارة أمير المؤمنين عليه السلام ٣٣
مقهى في النجف الأشرف ٥١
موكب في النجف الأشرف ٦٩
اليوم الأول في طريق المشاية ٨٧
اليوم الثاني في طريق المشاية ١١١
اليوم الثالث في طريق المشاية ١٢٥
الوصول إلى كربلاء ١٣٧
الوصول إلى الحرم ١٥٣
زيارة الأربعين ١٦٧
مصادر الأحاديث ١٧١